الجاحظ

كتاب الحيوان

١

المقدمة

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٨

الجاحظ

٧٧٥؟ – ٨٦٩

« كتب الجاحظ تعلّم العقل اولاً ، والادب ثانياً ! »

(ابن العميد)

إمام الادباء ، وحجّة المفكرين في العصر العبّاسي الثاني . عاش مستقلاً في مآتيه و عماله ، واختطّ لنفسه مذهباً خاصاً في علم الكلام عُرف به ، وجرى في الكتابة على اسلوب جديد انفرد به عن غيره

فهو في حياته رجل شخصي ، وفي آرائه متكلّم شخصي ، وفي انشائه اديب شخصي

الرجل

شبابه

اسمه - اصله – مولده

ابو عثمان عمرو بن بحر ، بن محبوب من موالي كنانة . كان جدّه عبدٌ اسود اللون ، جمّالاً لعمرو بن قَلع الكناني من اهل البصرة . وفيها وُلد الجاحظ ؛ واختُلف في سنة مولده ، فزعم ياقوت ان الجاحظ قال عن نفسه : « انا اسنّ من ابي نُواس بسنة ، وُلدت في اول سنة ١٥٠ ووُلد في

آخرها . » (١ ولكننا نشكّ في صحة هذه الرواية لأن ابا نُواس وُلد ، على ما هو مشهور ، سنة ١٤٥ هـ . او ، على قول بعض المؤرّخين ، سنة ١٣٠ هـ . وكلا التاريخين بعيد عن ميلاد الجاحظ . ثم نحن نعرف ان الجاحظ توفّي سنة ٢٥٥ هـ . فاذا جعلناه من لِدَات ابي نُواس ، تجاوز عمره المئة بكثير ، وهو امر لم يُشِر اليه احد . بل اتفق الجميع تقريباً على أنه تجاوز التسعين من عمره وبلغ بعضهم الى القول بالست والتسعين . فاذا اعتبرنا هذا الحدّ الاقصى رأينا ان مولده يقع حوالي السنة ١٥٩ هـ . اي ٧٧٥ كما اوردنا اعلاه

دمامة خلقه : « الجاحظ »

عرفنا ان جدّ الجاحظ كان عبدًا اسود ، فلا بدعَ اذا ورث هذا الشيء الكثير من خَلقهِ ، فغدا دميم الهيئة ، بشع المنظر ، قصير القامة ، ناتئ العينين اي بارزهما . ولهذا دُعي « بالجاحظ » و« الحدقي » فغلب عليه اللقب الاول . وله في قبح صورته ، اخبار عديدة لا بأس بايراد بعضها ، وهو يذكرها بنفسه على سبيل التفكهة . قال :

« ذُكِرتُ للمتوكّل لتأديب بعض وُلده . فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني . »

وقال ايضاً : « ما اخجلني الّا امرأتان : رأيت احداهما في العسكر(٢) وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام . فاردت ان امازحها ، فقلت : « انزلي كلي معنا ! » فقالت : « اصعد انت حتى ترى الدنيا . » (معرّضة بقصره)

---

١) ياقوت : ارشاد الاريب ، ج : ٦ ، ص : ٥٦ .
٢) العسكر : اسم مكان في سامرّا ، كان مصيفاً للخلفاء العباسيين .

واما الاخرى فانها اتتني ، وانا على باب داري، فقالت : «لي اليك حاجة ، وانا اريد ان تمشي معي. » فقمت معها الى ان اتت بي الى صائغ يهودي فقالت له : «مثل هذا ! » وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها . فقال : « انها اتت اليَّ بفَصّ وامرتني ان انقش عليه صورة شيطان ، فقلت : يا سيدتي ، ما رأيت الشيطان . فأتت بك ! »

وقد هجاه في ذلك احد الشعراء فقال:

لو يُمسخ الخنزير مسخاً ثانياً   ما كان الّا دون قُبح الجاحظ !

ذكاؤه – نشأته : في البصرة وبغداد

كانت البصرة ، في ذاك العصر ، من اكبر حواضر العلم والادب ، بل اكبرها بعد بغداد . وكان يجتمع في مسجدها الكبير كثير من الادباء ، والعلماء ، والنحاة ، واللغويين ، نعرفوا « بالمسجديين » ، كما يذكر الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» . وكان اديبنا ممن منّ الله عليهم بسرعة الحافظة ، ووفرة الذكاء ، والرغبة في التعلّم ، فجالسهم ، وعاشرهم ، واخذ عنهم . وكان يبلغ من رغبته في الاكتساب والمطالعة أنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها ا نظر (١ .

ثم قصد بغداد وتابع دروسه في مجالس اعلامها . فسمع من ابي عبيدة ، والاصمعي ، وابي زيد الانصاري ، واتقن اللغة عليهم ودرس النحو على الاخفش . ثم تتلمذ لابي اسحق ابراهيم بن سيّار البلخي المشهور «بالنظّام» ، وكان من اكبر علماء المتكلّمين في ذاك الزمن ، وامام المعتزلين في عصره . فأخذ عنه مبادئ الفلسفة ، وطرق التفكير ، وتحكيم العقل في مرويّات

---

١) ياقوت : الكتاب المذكور ج : ٦ ، ص : ٥٦

القوم . هذا وقد يكون اشتغل بالتجارة في اول شبابه كما يحمل على الظنّ ما رواه المرزباني عن المادي فقال : «حدّثني من رأى الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان» (١

ابتداؤه بالكتابة : اتّصاله بالمأمون

ولم يلبث ان بدأ بنشر التآليف في جميع الفنون المعروفة في عهده . وكان في اول امره ، يشكو من مناوئيه ، ومنتقديه ، وكان يعلم من اخلاق الناس حبّهم للماضي، وميلهم لتكريم القدماء من الكتاب، وازدراء المحدثين، فكان ينسب كتبه الى ابن المقفّع او سهل بن هارون حتى تسير . وهي حيلة لطيفة طالما تبعها الشبان من الكتبة . وقد استعملها تابعو الجاحظ من ادباء العرب ، فنسبوا اليه الكتب العديدة ايضاً كما نرى عند الكلام عن مؤلفاته

وكان الخليفة المأمون يسمع بذكر الجاحظ وتآليفه النفيسة فيودّ الاطلاع عليها حتى وقع له كتاب «الإمامة» في حجج الراوندية ، وهم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب . فدفعه المأمون الى اليزيدي لينظر فيه ويخبره عمّا تضمّن . فقرأه اليزيدي وامتدحه لدى المأمون ؛ فقرأه هذا واعجب به . فطلب الجاحظ وقال له : «قد كان بعض من نرتضي عقله ، ونصدق خبره ، خبّرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة ، فقلنا قد تربي الصفة على العيان . فلما رأيتها رأيت العيان قد اربى على الصفة . فلما فلّيتها ، اربى الفلي على العيان كما اربى العيان على الصفة .»(٢ ثم دعاه الى

١) ياقوت : ك . م . ج : ٦ ، ص : ٥٦ — وسيحان : نهر بالبصرة .

٢) البيان والتبيين — الطبعة الاولى — الجزء : ٣ ، ص : ١٥٧ .

الاقامــة في حاشيته . ويُستنتج من كلمة ذكرها ياقوت ، ان المأمون صدَّره في ديوان الرسائل . ولكنهُ استعفى بعد ثلاثة ايام فأُعفي . وكان سهل بن هارون يقول : « ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان ، أفل نجم الكتَّاب . »(١

عند ابن الزيات (؟ — ٨٤٧)

في سنة ٨٣٥ ، اختار الخليفة المعتصم محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيَّات وزيرًا له . ثم صار وزيرًا لخلفه الواثق . وكان من ادباء العصر ، ودهاقين السياسة المعروفين ، وكان على اتصال مع الجاحظ . فبدأ كوكب كاتبنا باللمعان ، وانقطع الى صديقه الوزير الجديد يمدحه ويكتب اليه الرسائل المتعددة ؛ مقيماً معه تارةً في بغداد ، وطورًا في العسكر ، آكلاً على مائدته ، كما يُستخلص من حادثة رواها الانباري (٢ . وفي هذه المدَّة قام الجاحظ ببضع سفرات ، فزار دمشق وانطاكية . فكانت هذه الحقبة من اسعد اقسام حياتــه . ولكنها لم تطُل ؛ لانه كان في بغداد رجل ينافس ابن الزيَّات في السياسة والادب ، وهو القاضي احمد بن ابي دؤاد المشهور ، فلم يزل يعمل على اسقاطه ، حتى بويع بالخلافة للمتوكّل سنة ٨٤٧ ، وهو عدوّ المعتزلة والحريَّة الفكرية ، وصاحب ابن ابي دوّاد . فاغتنم هذا تلك الفرصة السانحة ، وقبض على ابن الزيَّات ، فزجّه في تنّور حديد فيه مسامير ، كان ابن الزيَّات قد اعدّه ليعذّب فيه اعداءه ، فكان اول المعذّبين .

---

١) ياقوت : ك . م . ج : ٦ ، ص : ٥٨

٢) الانباري : نزهة الالبَّاء ص : ٢٥٧ .

عند ابن ابي دؤاد وابنه (٨٤٧ — ٨٥١)

اما الجاحظ فأسرع في الهرب والاختفاء، مخافة «أن يكون ثاني اثنين اذ هما في التنور» كما يقول معتذرًا (١ . على ان اختفاءه لم يطُل، وسرعان ما قبض عله رجال ابن ابي دؤاد فسجنوه. ثم ادخلوه على سيدهم، وفي عنقه سلسلة، وهو مقيّد، في قميص سَمِل . قال ابو العيناء الذي كان حاضرًا ذاك المشهد:

فلما نظر اليه احمد بن ابي دؤاد قال : «والله ما علمتك الّا متناسيًا للنعمة، كفورًا للصنيعة، معدّدًا للمساوئ. وما فتني باستصلاحي لك؛ ولكن الايام لا تُصلح منك الا لفساد طويّتك، ورداءة داخلتك، وسوء اختيارك، وتغالب طبعك.» فقال الجاحظ : «خفّضْ عليك، أيّدك الله. فوالله لأَن يكون لك الامر عليّ خيرٌ من ان يكونَ لي عليك. ولأَن أُسيء وتُحسن أحسنُ في الاحدوثة عنك من أن أُحسنَ فتُسيءْ ولأن تعفو عني في حال قدرتك اجمل بك من الانتقام مني.» فقال له ابن ابي دؤاد : «قبّحك الله! ما علمتك الّا كثير ترويق الكلام وقد جعلت ثيابك امام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر.» وكانهُ اراد تحقّق ما يعتقده الجاحظ في تفسير آيات القرآن، فتابع: «ما تأويل هذه الآية : «وكذلك أَخذُ رَبّك إذا اخذ القُرى وهي ظالمة. إنّ أَخذَه أليمٌ شديد!»(٢ ؟ قال: «تلاوتها تأويلها، اعزّ الله القاضي!» فقال: «جيئوا بحدّاد» فقال: «أعزّ الله القاضي، ليفكّ عني او ليزيدني؟» فقال: «بل ليفكّ عنك.»

---

١) ياقوت: ك. م. — ج : ٦ ص : ٥٧

٢) القرآن : (سورة ١١ [هود] ١٠٤)

فجيء بالحدّاد فغمّزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ ويُطيل امره قليلًا؛ ففعل . فلطمه الجاحظ وقال : « اعمل عملَ شهرٍ في يوم، وعملَ يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة . فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة (١ » فضحك ابن ابي دؤاد واهل المجلس منه وقال ابن ابي دؤاد لمحمد بن منصور وكان حاضراً: « انا اثق بظرفه، ولا اثق بدينه. » ثم قال: « يا غلام ِصرْ به الى الحمام، وأَمِطْ عنه الأذى ، واحمل اليه تخت ثياب » . . . فلبس ذلك ثم اتاه فتصدَّر في مجلسه. ثم اقبل عليه القاضي وقال: « هات الآن احاديثك يا ابا عثمان ! » (٢

ثم انقطع الجاحظ الى ابن ابي دؤاد يمدحه ويقدِّم له كتبه سنةً كاملة أُصيب بعدها القاضي بالفالج، فخلفه ابنه ابو الوليد محمد في القضاء، ومَدَحَ الجاحظ . وفي هذه الفترة دعا المتوكل كاتبنا لتعليم وُلده ثم صرفه لبشاعة منظره كما اوردنا. ولبث الجاحظ في حاشية ابي الوليد حتى سنة ٨٥١ اذ أُسقط هذا عن مقامه، وسُلبت نعمته

آخر ايامه (٨٥١—٨٦٩)

ضعف المعتزلة والتضييق على حرّية التفكير

وكان اضطهاد المتوكل لاصحاب الآراء الحرّة يزداد يوماً فيوماً ، فيزداد معه بغض المعتزلة في بطانة الخلافة ، واحتقار اصحابها عند عامّة الشعب. وقد شكا الجاحظ ذلك في بعض رسائله، فقال ان اعداء الكلام

---

١) ساجة : شجرة هندية عظيمة ، وتُطلَق على قطعة الخشب

٢) راجع ياقوت : ك. م. ج : ٦ ، ص : ٥٨ — ٥٩ ؛ والانباري : نزهة الالبّا. ؛ ص : ٢٥٧ — ٢٥٨ .

كانوا يدرسونه ليستعملوه ضدّ اصحابه . وعلى كل فلا برهان لدينـا على القول ان الجاحظ تأذّى من هذه الحركة

رجوعه الى البصرة

ولكن تقدّمه في العمر ، وكان قد تجاوز الثمانين ، وضعفه ، وابتداء الفالج في نصف جسمه ، كل هـذا اجبره على ترك بغداد مدينة الجلبة والسياسة والدسّ ، الى مسقط رأسه البصرة ، حيثُ انقطع حتى آخر ايام حياتــه

في بيته : زيارة الادباء له

وكان مرضه الطويل ، وظرفه الحيّ ، وحسن استقباله ، وقربه من الموت، يدفع الادباء الى زيارته . فكانوا يتسارعون اليه من البصرة وبغداد وغيرهما ، كلٌّ يطمع في مرأى ذاك الشيخ الراحل، وكلّ ينتظر سماع نادرة يرويها عنه في المستقبل . فتألفت اخبار، ونكات ، وحوادث، حول مرضه، وتصوير فالجه ، وسوء حالته ، لا بأس بايراد بعضها، واكثرها مرويّ عن موت بن المزرّع ابن اخت الجاحظ او ابن بنت اخته ؛ قال :

دخل الى خالي اناس من البصرة من اصدقائه، في العلّة التي مات فيها، فسألوه عن حاله، فقال :

« عليلٌ من مكانَينِ : من الاسقام والدَّيْنِ »

ثم قال : انا في هذه العلل المتناقضـة التي يتخوّف من بعضها التلَف واعظمها ستّ وتسعون سنة(١

١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ؛ ج : ١، ص ٤٩١ . وفي بعض الروايات : نيّف وتسعون ؛ ونيّف وثمانون ؛ وروى المسعودي : نيّف وسبعون (مروج الذهب ؛ ج : ٨ ، ص : ٣٥)

وزاره المبرّد فقال:

دخلت على الجاحظ في آخر ايامه فقلت له : «كيف انت ؟» فقال : «كيف يكون من نصفه مفلوج لو نُشر بالمناشير لما احسّ به . ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه . والأمرّ في ذلك اني قد جزت التسعين .» وانشدنا :

اترجو ان تكون وانت شيخٌ كما قد كنت أيام الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ! ليس ثوبٌ خليقٌ كالجديد من الثيابِ ! (١

ولم يخلُ الجاحظ ، حتى في اشدّ مرضه ، من حبّ النكتة وطلب المال . وهذه حادثة عن بعض البرامكة تدلّ على حالته اذ ذاك ، اوردها ابن خلكان ، قال :

حكى بعض البرامكة قال : كنت قد تقلّدت السند ، فاقمت بها ما شاء الله تعالى . ثم اتصل بي اني صُرفت عنها ، وكنت كسبت بها ثلاثين الف دينار . فخشيت ان يفاجئني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه . فصغته عشرة آلاف اهليلجة (٢ ، في كل اهليلجة ثلاثة مثاقيل . ولم يمكث الصارف حتى اتى . فركبت البحر وانحدرت الى البصرة ، فخُبّرت ان الجاحظ بها وانه عليل بالفالج ، فأحببت ان اراه قبل وفاته ، فصرت اليه . فافضيت الى باب دار لطيف فقرعته . فخرجت اليّ خادم صفراء فقالت : «من أنت ؟» قلت : «رجل غريب ، واحب ان اسرّ بالنظر الى الشيخ .» فبلّغته الخادم ما قلت . فسمعته يقول : «قولي له : وما تصنع بشقّ مائل ،

---

١) الانباري : الكتاب المذكور : ٢٥٨ — ٢٥٩

٢) الاهليلجة : واحدة الاهليلج : في الاصل ثمر مختلف الانواع هيئته مستديرة متطاولة كالبلّوط . ثم في الهندسة شكل ذو دائرة في طول (ellipse)

ولُعاب سائل، ولون حائل!» فقلت للجارية: لا بدّ من الوصول اليه.» فلمّا بلّغته قال: هذا رجل قد اجتاز بالبصرة، وسمع بعلّتي، فقال: احبّ ان اراه قبل موته فاقول: «قد رأيت الجاحظ.» ثم اذن لي، فدخلت وسلّمت عليه. فردّ ردًا جميلًا وقال: «من تكون، اعزّك الله؟» فانتسبت له، فقال: «رحم الله تعالى اسلافك وآباءك السمحاء الاجواد. فلقد كانت أيامهم رياض الازمنة، ولقد انجبر بهم خلقٌ كثير، فسَقياً لهم ورعياً!» فدعوت له، وقلت: «انا اسألك ان تُنشدني شيئاً من شعرك» فانشدني:

لئن قدّمت قبلي رجالٌ، فطالما مشيت على رِسلي وكنت المقدّما!
ولكنّ هذا الدهر تأتي صروفه فتُبرم منقوضاً، وتنقض مُبرَما!

ثم نهضت فلما قاربت الدهليز قال: «يا فتى، ارأيت مفلوجاً ينفعه الاهليلج؟» قلت: «لا!» قال: «فان الاهليلج الذي معك ينفعني، فابعث لي منه.» فقلت: «نعم!» وخرجت متعجباً من وقوعه على خبري مع كتماني له وبعثت له مائة اهليلجة.(1)

هذا ومهما كان مبلغ النكتة من الصحة، فانها تدلّ اوفر دلالة على عقليّة الجاحظ الفكهة حتى ابان مرضه. وهو كثيرًا ما كان يلتقي الراغبين في رؤيته بقوله المشهور: «وما تصنع بشقّ مائل، ولعاب سائل، ولون حائل!»

موته (٨٦٩)

يكاد يجمع المؤرّخون على ان الجاحظ توفّي في شهر محرّم من سنة ٢٥٥ هـ. وشهر محرّم في تلك السنة ابتدأ في ٢٠ كانون الاول سنة ٨٦٨

---

١) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج: ١، ص: ٤٩٢

وانتهى في ١٨ كانون الثاني سنة ٨٦٩ . ولم يعيّن المؤرخون لنا يوم الوفاة من الشهر المذكور فيمكننا تعيينه في التاريخ المسيحي . وهناك تاريخان آخران يذكرهما بعض الرواة لموت الجاحظ ، وهما فاسدان للسبب الآتي : يقول البعض انه مات سنة ٢٥٠ هـ . ويذكر المسعودي ان غيرهم يقول بل سنة ٢٥٦ هـ . على ان هذا الاختلاف ينفيه ما ذكر ياقوت(١ والانباري(٢ من ان وفاة الجاحظ كانت في عهد المعتز بالله ونحن نعلم ان المعتز بالله بُويع له بالخلافة سنة ٢٥٢ هـ . (٨٦٧) وقُتل سنة ٢٥٥ (٨٦٩) اي سنة وفاة الجاحظ . فيكون الرأي الاول هو الصواب .

اخلاقه

عرفنا ان الطبيعة جارت على الجاحظ ، فجعلته قصيراً ، دميماً ، بشع المنظر ، نافر العينين ؛ ثم زادت بلاياه فاصيب بالفالج مدة طويلة من حياته الطويلة . ولم يحدث عملاً في زمانه فكان عيالاً على ممدوحيه تارة وعلى المعجبين به اخرى . وقيّض له القدر من عاكسه في اول امره ، وانتقد كتبه المتعددة ، وحارب افكاره الجريئة مجتهداً في اضعاف نفوذه

غير ان كل هذه البلايا لم تكن لتنزع من تلك الشخصية الملكة المهمة التي تميزها عن جمهرة الكتاب والشعراء في كل عصر ومصر ، الا وهي الظرف والفكاهة

كان الجاحظ فكهاً يحبّ النكتة ، ويتطلّبها ولو في اقسى المواقف ،

١) ياقوت : ك . م . ، ح : ٦ ، ص : ٨٠
٢) الانباري . ك . م . ص : ٢٥٦

واوفر المواضيع خطورة واهمية. فهو ، باحثاً في شروع القرآن واختلاف المفسّرين ، ومذاهب المتكلّمين ، وآراء الفلاسفة ، هو نفسه ، ذاكرًا خرافات الناس في ما يتعلق بمسخ القرد والخنزير ، او تزاوج السباع والابل ، او معيشة الحمام ، وطرق الحيات في صيد العصافير ؛ لا تفارقه النادرة ، ولا تفوته النكتة ، ولو لاذعة بعض الاحيان. كذلك كان في كتاباته ! وما كتاباته الا صورة حياته ؛ وهي مجموعة نكات مطّردة ، متصلة ، منذ اخذه بالتهكّم على نفسه والسخر من سحنته البَشِعة ذاكرًا النوادر الكثيرة في ذلك ، الى موقفه امام ابن ابي دوّاد على قاب قوسين من الموت يتبرّم ببطء الحدّاد في كسر قيوده فيضحك الجمهور من ذلك ، الى عبثه في آخر حياته ، وقد برّح به الألم ، فقال لابن اخته : « لم يبقَ من ملذات الدنيا الّا ثلاث : ذمّ البخلاء ، وأكل القديد ، وحكّ الجرَب ! » الى غير ذلك من النوادر العديدة والاجوبة السريعة المسكتة. فيمكننا التأكيد إذًا انه كان رجلًا مستقلًا ظريفاً. وسنرى في الجزئين الآتيين انه كان ايضاً ، مفكرًا ظريفاً ، وكاتباً ظريفاً.



مآخذ

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، وانباء ابناء الزمان — طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ. (١٨٨١) الجزء الاول ، ص: ٤٩٠

الانبـاري : نزهة الالبّاء في طبقات الادباء — طبعة مصر ١٢٩٤ هـ . (١٨٧٦) ص : ٢٥٤

ياقوت : ارشاد الاريب، الى معرفة الاديب— Margoliouth — الجزء السادس ، مصر ١٩١٣ ، ص ٥٦

المسعودي : مروج الذهب — طبعـة Barbier de Meynard — باريس — في عدّة اجزاء يراها المطالع معيّـنة عند كلمة الجاحظ ، في الفهرس الابجدي ، في الجزء التاسع

ابوسعيدالسمعاني: كتاب الانساب — طبعة فوتوغرافية لمخطوطة «المتحف البريطاني » — Margoliouth — ١٩١٢ ، ص : ١١٨

احمد زكي باشا : مقدّمة طبعة كتاب « التــاج » — مصر ١٩١٤ — بالعربية والافرنسية

جرجي زيدان : الجاحظ — في تاريخ الآداب العربية — الجزء الثاني ؛
ص :١٦٧

البستـاني : الجاحظ — في دائرة المعارف — المجلّد السادس ؛ ص :
٣٤٨

B[on] Carra de Vaux : Djâhez — «les Penseurs de l'Islam»
t. I — Paris, 1921, p. 293

X : Djâhiz — Encyclop. de l'Islam.

Cl. Huart : el-Djâhizh — Litt. Arabe — 4° éd. Paris,
1923 — p. 212



كتاب الحيوان



١

المقدّمة



المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الردّ على من انتقد كتبه السابقة

جَنَبَك (١ الله الشُبهة (٢ ، وعَصَمَك من الحَيْرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبّبَ اليك التثبُّت ، وزيّن في عينك الإنصاف ، واذاقك حلاوةَ التقوى ، وأشعرَ قلبك عزّ الحقّ ، واودع صدرك البرّ واليقين ، وطرد عنك ذلّ اليأس ، وعرّفك ما في الباطل من الذلّة ، وما في الجهل من القلّة. ولعمري لقد كان غير هذا الدعاء أصوَب في أمرك ، وادلّ على مقدار وزنك ، وعلى الحال التي وضعتَ نفسك فيها ، ووسمت عِرْضك بها ، ورضيتها لعرضك حظاً ولمروّتك شكلاً . . .

ذكر الكتب المنتقدة

وعِبْتني بكتاب الصُرَحاء (٣ والهُجَناء (٤ ، ومفاخر السودان

---

١) جَنَبَك : ابعدك عن. — ٢) الشُبْهة : ما يلتبس فيه الحقّ بالباطل ، والحلال بالحرام.

٣) الصرَحاء : ج . الصريح : الصافي ، الخالص ، من لا شكّ في خلوص نسبه.

٤) الهجناء : ج . الهجين : الذي ابوه عربي وأمه أمَة ، اللئيم.

والحُمران، وموازنة ما بين حقّ الخؤولة والعمومة. وعِبتَني بكتاب الزرع والنخل، والزيتون، والاعناب، واقسام فضول الصِناعات، ومراتب التِجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفي ايّ موضع يغلبنَ ويفضلنَ، وفي ايّ موضع يكنّ المغلوبات والمفضولات، وفي اي موضع يكون حقّهنّ أوجب، واي عمل هو بهنّ أليَق، وايّ صِناعة هنّ فيها أبلغُ. وعِبتَني بكتاب القَحطانية والعَدنانية في الردّ على القحطانية؛ وزعمتَ اني تجاوزت فيه حدّ الحميّة الى حدّ العصبيّة، واني لم أصِل الى الى تفضيل العَدنانية إلّا بتنقيص القَحطانية. وعِبتَني بكتاب العَرب والموالي، وزعمتَ أني بخستُ الموالي حقوقهم كما اني اعطيت العربَ ما ليس لهم. وعِبتَني بكتاب العرب والعجم، وزعمتَ ان القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتَني الى التكرار والترداد، والى التكثير والجهل بما في المُعاد من الخَطَل (١

وعِبتَني بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات (٢ الهند لها، وسبب عبادة العرب ايّاها، وكيف صار المتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة اشدّ الديّانين الفاً لما دانوا به، وشغفاً لما تعبّدوا له، وأظهرَهم جدًّا، وأشدَّهم على من خالفهم ضِغناً، وبما دانوا ضِناً؛ وما الفرق بين البُدّ (٣ والوَثَن (٤، وما الفرق بين الوَثَن والصنم (٥، وما الفرق بَين

١) الخَطَل: الكلام الكثير الفاسد.
٢) اعتلالات: اي الحجج التي يتمسّكون ويحتجّون بها.
٣) البُدّ: من الفارسية: بُتَ: بمعنى الصنم او بيت الصَنَم.
٤) الوَثن: ماله جثّة من خشب او حجر او جوهر او فضة ينحت ويُعبد.
٥) الصنم: كل ما يُعبد من دون الله.

الدُمْية (١ والجُثة(٢ ؛ ولِمَ صوَّروا في محاريبهم ، وبيوت عباداتهم ، صوَرَ عظمائهم ورجال دعوتهم ، ولِمَ تأنقوا في التصوير ، وتجرَّدوا في إقامة التركيب ، وبالغوا في التحسين والتفخيم ؛ وكيف كانت أوّلية تلك العبادات ، وكيف افترقت تلك النحل ، ومن ايّ شكل كانت خدع تلك السَدَنة (٣ وكيف لم يزالوا اكثر الاصناف عددًا ، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة

وعِبْتَني بكتاب المعادن ، والقول في جواهر الأرض ، وفي اختلاف اجناس الفِلِزّ (٤ ، والإخبار عن ذائبها ، وجامدها ، ومخلوقها ، ومصنوعها ؛ وكيف يُسرع الانقلاب الى بعضها ، ويُبطئ عن بعضها ؛ وكيف صار بعض الالوان يصبَغ ولا ينصَبِغ ، وبعضها يَنصَبِغ ولا يَصْبَغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ؛ وما القول في الإكسير (٥ والتلطيف (٦

وعِبْتَني بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ؛ وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجنّ ؛ وكيف القول في

---

١) الدُمْية : الصورة المنقّشة المزيّنة فيها حُمرة ، وتكون من الرخام او العاج وتُعبد من دون الله .

٢) الجُثة : شخص الإنسان قاعدًا او نائمًا .

٣) سَدَنة : ج . سادن : خادم الهيكل عند الوثنيين .

٤) الفِلِزّ : النحاس الابيض ، ويُطلق على معادن الارض كلها .

٥) الإكسير : مركّب كان يسعى لتحقيقه الكيماويون وكان من شأنه أن يحوّل المعادن الى ذهب ، ومولّده كان يُعرف «بحجر الفلاسفة» .

٦) التلطيف : في الكيمياء : جعل الاجسام لطيفة وتكون كذلك اذا اجتمعت فيها اربع صفات : الرقة اي سهولة قبول الاشكال الخارجية ، قبول الانقسام الى اجزاء صغيرة جدًا ، سرعة التأثر ، الشفافية .

استيلاء العفريت على سُلَيمان...

وعِبتني بكتاب الاوقاف والرياضات ؛ وما القول فى الارزاق والانفاقات ، وكيف تجرّد التجار الحرفاء (١ ، وكيف الاحتيال للودائع؟ وبكل ما كتبتُ الى اخواني وخُلطائي من مزحٍ وجدّ ، ومن إفصاحٍ وتعريض ، ومن تغافُل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال مبسمُه (٢ باقياً ، ومديحٍ لا يزال اثره نامياً ، ومن ملحٍ تضحك ، ومواعظ تبكي

وعِبتني برسائلي الهاشميات واحتجاجي فيها ، واستقصائي معانيها ، وتصويري لها في احسن صورة ، واظهاري لها في اتمّ حلية . وزعمتَ أني قد خرجت بذلك من حدّ المعتزلة (٣ الى حدّ الزيدية (٤ ، ومن حدّ الاعتدال في التشيُّع والاقتصاد فيه الى حدّ السرَف والافراط فيه . وزعمتَ ان مقالة

---

١) الحُرفاء : ج . احَريف : الحاذق .

٢) ميسمه : علامته .

٣) المعتَزلة : بدعة اسلامية أسسها في البصرة واصل بن عطاء († ٧٠٧) وسمَّاها المعتزِلة لأن اصحابها اعتزلوا فئتي الضلال وهما : اهل السُنَّة والخوارج ، على قولهم . وكان من اخصّ مبادئهم : تحكيم العقل في الوحي ؛ وعرض العقائد الدينية على القواعد المنطقية ؛ ورفض ما فاق منها العقل البشري وهكذا كان من آرائهم : ان القرآن مخلوق ؛ والآيات والعجائب غير صحيحة ؛ والانسان حرّ خالق لأعماله ؛ ولا لزوم للوحي . . . – وقد انتشرت هذه البدعة كثيراً في العصر العباسي الاول وكان منها الفلاسفة وكبار الرجال حتى بدأ باضطهادها المتوكل سنة ٨٥١ ، وضعضع مبادءها الاشعري († ٩٤١) بتآليفه العديدة .

٤) الزيديّة : بدعة اسلاميّة من الشيعة ، تؤلّف من اتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب . وهم اكثر الفرق الشيعية اعتدالاً . من آرائهم : إمامة وُلد علي من فاطمة ؛ وجواز خروج إمامين في قُطرين .

الزيدية خطيئة مقالة الرافضة (١ ؛ وان مقالة الرافضة خطيئة مقالة الغالية (٢ . وزعمتَ ان في أصل القضية ، والذي جرت عليه العادة ، ان كلَّ كبير فأوَّله صغير ، وان كلّ كثير فانما هو قليل جُمِع الى قليل ، وانشدتَ قولَ الراجز :

قد يلحق الصغيرُ بالجليل وانما القَرْمُ من الأَفيلِ (٣
وسُحُق النخلِ من الفسيل ! (٤

وانشدتَ قول الشاعر :

ربَّ كبير هاجه صغيرُ ! وفي البحور تغرق البحورُ !

وعبت كتابي في خَلْقِ القرآن (٥ ؛ كما عبتَ كتابي في الردّ على المشبّهة (٦ ؛ وعبت معارضتي للزيدية وتفضيل الاعتزال على كل نحلة ؛ كما

---

١) الرافضة : فئة من الشيعة بايعوا زيد بن علي ثمّ تركوه

٢) الغالية : يعنون بهذا الاسم مجموع الفرق الشيعيّة التي تُغالي في اكرام علي ابن ابي طالب حتى تجعله في مصاف الآلهة ، وهي عديدة .

٣) القَرْم : الفَحل من الجمال ، والسيّد ، والعظيم ؛ والمعنى الاول هو المقصود. الأفيل : الفَصيل اي ولد الناقة ، اذا فُصِل عن الرضاع .

٤) سُحق : ج. سَحُوق : النخلة الطويلة . الفسيل : ج. الفسيلة : النخلة الصغيرة تُقلَع من الارض ، او تُقطَع من الامّ ، فتُغرس .

٥) خلق القرآن : مسألة كلامية اشغلت علماء الاسلام مدة القرون الطوال ؛ واشتدَّ الجدال في القرن الثالث للهجرة . فقال المعتزلون أنه مخلوق وخالفهم السنّيون في ذلك قائلين انهُ موجود منذ البدء . الى ان صرّح الخليفة المأمون رسمياً سنة ٨٢٧ بأن القرآن مخلوق منتصرًا للمعتزلة ومضطهدًا اخصامهم . الّا ان هذا الفوز لم يدم الّا ٢٤ سنة ، فقام المتوكل باضطهاد المعتزلة سنة ٨٥١ كما ذكرنا .

٦) المشبّهة : بدعة اسلامية كانت تقول ان لله جسماً وحواسّ كما للبشر. وتدعى ايضًا « المجسّمة » .

عبت كتابي في الوعد والوعيد (١ ؛ وكتابي على النصراني واليهودي . ثم عبت جملة كتبي في المعرفة ، والتمست تهجينها بكل حيلة ، وصغرت من شأنها ، وحططت من قدرهـا ، واعترضتَ على ناسخيها ، والمنتفعين بها . فعبت كتاب الجوابات ، وكتاب المسائل ، وكتاب اصحاب الإلهام ...

نقد هذا الكتاب

ثم قصدت كتابي هذا بالتصغير لقـدره ، والتهجين لنظمه ، والاغتماض (٢ على لفظه ، والتحقير لمعانيه . فزريت (٣ عليَّ نحته وسبكه ، كما زريت عليَّ معناه ولفظه . ثم طعنت في الغرض الذي اليه نزعنا ، والغاية التي اليها قصدنا .

فائدة الكتاب اجمالًا

على انه كتاب معناه أنبه من اسمه ، وحقيقته آنق من لفظه . وهو كتاب يحتاج اليه المتوسّط العامي ، كما يحتـاج اليه الخاصّ ؛ ويحتاج اليه

١) الوعد والوعيد: على هذين الامرين كان ينقسم اكثر البدع الاسلامية ، فينفي بعضهم خلود المسلمين في النار مهما صنعوا ، وكانوا يُدعون « الوعدية » من الوعد بالخلاص ، او « المُرجئة » ودستورهم : « لا تضرّ مع الايمان معصية ، ولا تنفع مع الكُفر طاعة . » ويشدّد غيرهم حتى على المؤمنين فيقولون : ان المؤمن اذا مات بلا توبة ، وكان مرتكبًا الكبائر ، فهو هالك خالد في النار ولا ينفعه ايمانه . وكان هؤلاء من المعتزلة والخوارج ويسمّون « الوعيديـة » من الوعيد بالهلاك .

٢) الاغتماض : يريد بها نسبة الغموض .

٣) زرى : عليه عَمَلَهُ : عاتبه ، او عابه .

الرَّيّض (١ كما يحتاج اليه الحاذق. أما الرَّيّض فللتعلّم والدربة، وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين العادة؛ إذ كان جليلُه يتقدّم دقيقَه، وإذ كانت مقدّماته مرتبة، وطبقات معانيه منزلة. وأما الحاذق فلكفاية المؤونة؛ لان كل من التقط كتاباً جامعاً وباباً من امّهات العلم مجموعاً، كان له غُنمُه (٢، وعلى مؤلّفه غرمُه؛ وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدُّه؛ مع تعرّضه لمطاعن البُغاة (٣، ولاعتراض المنافسين؛ ومع عَرْضِهِ عقلَه المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة (٤، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحَسَدَة

صفات هذا الكتاب خاصّةً

وهذا الكتاب، تستوي فيه رغبة الأُمم، وتتشابه فيه العرب والعجم. لأنه، وإن كان عربياً اعرابياً، وإسلامياً جماعيا، فقد اخذ من طرف الفلسفة؛ وجمع معرفة السماع، وعلم التجربة؛ وأشرك بين علم الكِتاب والسُّنَّة؛ وبين وجدان الحاسّة واحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ؛ ويشتهيه الناسك كما يشتهيه الناسك؛ ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المُجدّ ذو الحَزْم؛ ويشتهيه المغفّل كما يشتهيه الأريب؛ ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفَطِن...

---

١) الرَّيّض: في الاصل: الدابّة اوّل ما تُراض اي تعلّم السير وتُطوّع. والمراد هنا: المبتدئ في تعلم الطالب.

٢) غُنْمُه: اي ربحه. ٣) البُغاة: ج. الباغي: الظالم في الحكم او العمل.

٤) الجهابِذَة: ج. الجِهبِذ: الناقد العارف بتمييز الجيّد من الردي.

العود الى الردّ على المنتقِد

... ولكنَّك لم تعرف باب المَخرج اذ جهلت باب المدخل ؛ ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد . ورأيت ان سبّ الاولياء اشفى لدائك وأبلغ في شفاء سُقمك ؛ ورأيت أن ارسال اللسان احضر لذّة وابعد من النصَب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن الاختلاف الى ارباب هذه الصناعة . ولو كنت فطنت لعجزك ، وَصَلتَ نقصك بتمام غيرك ، واستكفيت من هو موقوفٌ على كفاية مثلك ، وحبيسٌ على تقديم اشباهك . كان ذلك أزين في العاجل ، واحقّ بالمثوبة في الآجل ؛ وكنت ، إن أخطأتك الغنيمة ، لم تُخطِئك السلامة . وقد سلم عليك المُخالق، بقدر ما أَبتلي منك الموافق ؛ وعلى ان لم يُبتلَ منك الا بقدر ما ألزمته من تثقيفك، والتشاغل بتقويمك . وهل كنت في ذلك الا كما قال العربي : « هل يضرّ السحاب نبحُ الكلاب ؟ » والا كما قال الشاعر :

هل يضرّ البحرَ امسى زاخرًا إن رمى فيه غُلامٌ بحجر ؟

وما أشكّ أنك قد جعلتَ طول إعراضنا عنك مطيّةً لك ، ووجهت حلمنا عنك الى الخوف منك ... ولو شئت ان نعارضك لعارضناك في القول بما هو اقبح اثرًا ، وابقى وسمًا ، واصدق قيلًا ، واعدل شاهدًا . وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح ، كما انه ليس كل من عارض فقد انتصر . وقد قال الشاعر قولًا ، ان فهمتَه ، فقد كفَيتَنا مؤونة المعارضة ، وكفيت نفسك لزومَ العار . وهو قوله :

إن كنتَ لا ترهب ذمّي ، لما تعرفُ من صفحي عن الجاهلِ ،

فاخشَ سكوتي ، اذ انا مُنصِتٌ ، فيك ، لمسموع خَنى القائلِ (١
مقالة السوء الى أهلها اسرع من منحدرٍ سائلِ
ومن دعى الناسَ الى ذمّهِ ذمّوه بالحقّ وبالباطلِ !
فلا تُهِج ، إن كنت ذا إرْبَةٍ ، حربَ اخي التجربة العاقلِ ! (٢

وقد يُقال : إن العفو يُفسد من اللئيم ، بقدر اصلاحه من الكريم . وقد قال الشاعر :

والعفو ، عند لبيب القوم ، موعظةٌ : وبعضُه ، لسفيه القوم ، تدريبُ ! (٣

اخذ البرئ بذنب الاثيم

ثم يورد قول القرآن ، واشعار العرب . وامثالها ، في اخذ البرئ بذنب الاثيم . الى ان يصل في سياقه الى حادثة سنمار

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سنمار الرومي . فانه ، لما علا الخَوَرْنق (٤ ورأى بنياناً لم يرَ مثله ، وخاف ان هو استبقاه ان يموت (٥ ، فيبني مثل ذالك البنيان لرجل آخر من الملوك ، رمى به من فوق القصر . فقال في ذلك الكلبي ، في شيء كان بينه وبين بعض الملوك :

جزاني جزاه اللهُ شرَّ جزائه ، جزاءَ سِنِمَّارٍ ، وما كان ذا ذنبِ
سوى رَصّهِ البنيانَ سبعين حجةً يعلّي عليه بالقراميد والسكبِ .
فلما رأى البنيانَ تمَّ سحوقُه ، وآضَ كمثل الطود ذي الباذخ الصعبِ (٦

---

١) الخَنى : الفحش في الكلام .
٢) الإرْبَة . الدهاء والاحتيال . ذو إرْبَة : صاحب دهاء .
٣) التدريب : مصدر درَّبه على الأمر : عوَّده ومرَّنه .
٤) الخَوَرْنق : قصر للنعمان بن المنذر في الحيرة .
٥) يموت : الضمير للملك .
٦) السحوق : العلو . آض : صار . الباذخ : من الجبال : العالي .

وظنّ سنمّار بـه كلَّ حَبْوَةٍ ، وفاز لديه بالمودّة والقُربِ (١
فقـال : « اقذفوا بالعِلْجِ من رأس شاهقٍ ! »
فـذاك ، لعمرُ الله ، من أعظمِ الخَطْبِ ! (٢

وجاء المسلمون يروي خلفٌ عن سلفٍ ، وتابعٌ عن سابق ، وآخِر عن أوّل ، أنهم لم يختلفوا في عيب قول زياد : «لآخذنّ الوليَّ بالمولى ، والسميَّ بالسميّ ، والجارَ بالجار ! » ولم يختلفوا في لعن شاعرهم حيث يقول :

اذا أُخذ البريءُ بغير ذنبٍ ، تجنّب مـا يحاذره السقيمُ !

قال : وقيل لعمرو بن عبيد : ان فلاناً لمّا قدّم رجلًا ليضرب عنقه ، فقيل له : « انه مجنون ! » فقال : « لولا ان المجنون يلد عاقلًا ، لخلّيت سبيله ! » فقال عمرو : «ما خلق الله النار الا بالحقّ ! » (٣

قال : وذمّ رجل ، عند الاحنف بن قيس ، الكمأة بالسمن . فقال عند ذلك الاحنف : « ربَّ مذمومٍ لا ذنبَ له ! »

عود الى المُنتَقِد

فبهذه السيرة سِرتَ فينا . وقلت : « ومـا بال اهل العلم والنظر ، واصحاب الفكر والعِبَر ، وارباب النِحَل ، والعلماء ، واهل البصر بمخارج الملل ، ووَرَثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتبَ الظُرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخُلَعاء ، وكتب الملاهي والفكاهات ، وكتب اصحاب الخصومات ، وكتب اصحاب المراء ، وكتب اصحاب العصبيّة وحميّة

١) حَبْوة : عطية . — ٢) العِلْج : الغليظ ، الضخم ، من الروم خاصة
٣) اي انهلك ذاك الرجل الذي قتل المجنون ليخلص من اعاقل الذي قد يلده .

الجاهلية . لأنهم لا يحاسبون انفسهم ، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ، ولائمة الأدباء ، وشنف(١ الأكفاء ، وشنأة (٢ الجلساء !»

فهلّا امسكتَ ، يرحمك الله ، عن عيبها ، والطعنِ عليها ، وعن المشورة والموعظة ، وعن تخويف ما في سوء العاقبـــة ، الى أن تبلغ حال العلماء ومراتب الأكفاء !

محتويات الكتاب

فاما كتابنا هذا فسنذكر جملة المذاهب فيه ، وسنأتي على التفسير . ولعلّ رأيك عند ذلك ، ان يتحوّل ؛ وقولك ان يتبدَّل . فتثبت ، او تكون قد اخذت من التوقف بنصيب

تقسيم مخلوقات العالم

وأقول : إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة انحـاء : متفق ، ومختلف ، ومتضاد . وكلها في جملة القول : جمادٌ ، ونامٍ . وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يُقال : نامٍ ، وغير نامٍ . ولو ان الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنامٍ اسماً كما وضعوا للنامي اسماً ، لاتبعنا أثرهم ؛ وانما ننتهي الى حيث انتهوا . وما اكثر ما تكون دلالة قولهم : « جماد » كدلالة قولهم : «موات» ؛ وقد يفترقان في مواضع بعض الافتراق

١) الشَنَف : مصدر شَنِف اليه : نظر كالمعترض عليه ، او كالمتعجب منه ، او كالكاره له .

٢) الشَنَأة : البغض المختلط بالعداوة .

الكواكب

واذا خرجت من العالم الى الافلاك ، والبروج ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، وجدتها غير نامية . ولم تجدهم يسمّون شيئاً منها بجماد ، ولاموات . وليس لأنها تتحرّك من تلقاء انفسها ، لم تُسمَّ مواتاً ولا جماداً . وناسٌ يجعلونها مُدبِرَة ؛ وناسٌ غيرَ مُدبرة . ويجعلونها مُسخَّرة ، وغير مسخَّرة ؛ ويجعلونها أحياء من الحيوان ، إذ كان الحيوان انما يحيا بإحيائها له ، وبما تعطيه وتعيره . وانما هذا منهم رأي . والأممُ ، في هذا كله ، على خلافهم . ونحن ، في هذا الموضع ، انما نعبّر عن لغتنا ؛ وليس في لغتنا الا ما ذكرنا

الأرض والعناصر

والناس يسمّون الارض جماداً ، وربما يجعلونها مواتاً ، اذا كانت لم تُنبت قديماً وهي : مواتُ الارض . وذلك كقولهم : « من أحيا ارضاً مواتاً ، فهي له ! » وهم لا يجعلون الماء ، والنار ، والهواء ، جماداً ولا مواتاً ، ولا يسمّونها حيواناً ، ما دامت كذلك ؛ وان كانت لا تُضاف الى النماء والحسّ

والأرض هي احد الاركان الاربعة التي هي : الماء ، والارض ، والهواء ، والنار . والاسمان لا يتعاوران عندهم الّا الأرض

ثم النامي على قسمين : حيوان ونبات

والحيوان على اربعة اقسام : شيء يمشي وشيء يطير ، وشيء يسبح ، وشيء ينساح . الّا ان كل طائر يمشي ؛ وليس الذي يمشي ولا يطير يسمّى طائراً

والنوع الذي يمشي على اربعة اقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات

على ان الحشرات راجعة في المعنى الى مشاكلة طباع البهائم والسباع . الا اننا في هذا كله ، نتّبع الاسماء الفارقة المعروفة البائنات بانفسها ، المتميّزات عند سامعيها من اهل اللغة ، واصحاب هذا اللسان . وانما نُفرد ما افردوا ، ونجمع ما جمعوا

اقسام الطيور

والطير كلّ سبع ، وبهيمة ، وهمج . والسباع من الطير على ضربين : فمنها العتاق ، والأحرار ، والجوارح . ومنها البُغاث ، وهو كل ما عظُم من الطير سبعاً كان او بهيمة ، اذا لم يكن من ذوات السلاح والمخالب المعقفة كالنسور ، والرخم (١ ، والغربان ، وما اشبهها من لئام السباع . ثم الخُشاش ، وهو ما لطُف جرمه ، وصغُر شخصه ، وكان عديم السلاح كالزُرَّق (٢ واليؤيؤ (٣ . فاما الهمج فليس من الطير ، ولكنه مما يطير . والهمج فيما يطير كالحشرات فيما يمشي . والحيّات من الحشرات ، واي سبع أدخل في معنى السبعيّة من الافاعي والثعابين ! ولكن ليس ذلك من اسمائها ، وان كانت من ذوات الانياب ، وأكّالة اللحوم ، واعداء الانس وجميع البهائم . ولذلك تأكلها الأوعال ، والخنازير والقنافذ ، والغربان ، والشاهمرك (٤ ، والسنانير ، وغير ذلك من البهائم

١) الرَّخم : طائر من الجوارح النهارية ، ابقع يشبه النسر في الخلقة ، يختار لبيضه اطراف الجبال ، وخلال الصخور ، ليعسر الوصول اليه . والعامة تسميه : الشوح .
٢) الزُرَّق : جمعه زراريق : طائر صيّاد بين البازي والباشق . وقيل : هو البازي الأبيض . ٣) اليُؤيؤ : جمعه يآيئ : طائر من الجوارح يُشبه الباشق . يُستعمل في الصيد كالبازي . ٤) الشاهمرك : معرَّب « الشاه مَرغ » : ملك الطير ، ويقال له : « الشامَرك » : الفتى من الدجاج .

والسباع . فمن جعل الحيَّات سباعاً ، وسمَّاها بذلك عند بعض القول والسبب ، فقد أصاب ؛ ومن جعل ذلك لها كالأسم الذي هو العلامة كالكلب ، والذئب ، والأسد ، فقد أخطأ

ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه المخالب كالعقاب وما اشبهها. وشيء يكون سلاحه المناقير كالنسور ، والرَخم ، والغربان . وانما جعلناها سباعاً لأنها اكالة لحوم . ومن بهائم الطير ما يكون سلاحه المناقير كالكراكيّ وما اشبهها . ومنه ما يكون سلاحه الاسنان كالبوم ، والوطواط ، وما اشبهها . ومنه ما يكون سلاحه الصياصي كالديكة . ومنه ما يكون سلاحه السَلح كالحباري والثعلب

والسبع من الطير ما أكل اللحم خالصاً . والبهيمة ما أكلت الحب خالصاً . وفي الفنّ الذي يجمعها من الخَلق المركَّب ، والطبع المشترك ، كلامٌ سنأتي عليه في موضعه ، ان شاء الله تعالى . والمشترك (١ عندهم كالعصفور. فإنه ليس بذي مخلب معقّف ، ولا مِنسَر ؛ وهو يلقط الحبّ ؛ وهو ، مع هذا ، يصيد النحل إذا طار ، ويصيد الجراد ، ويأكل اللحم ؛ ولا يزقّ فراخه كما تزقّ الحمام ، بل يلقمها كما تلقم السباع من الطير فراخها . وأشباه العصافير من المشترك كثير . وسنذكر ذلك في موضعه ، ان شاء الله تعالى !

وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير . قد يطير الجُعلان (٢ ،

---

١) المشترك : اي المشترك بين السبُع والبهيمة .

٢) الجُعلان : ج . الجُعَل : ضرب من الخنافس الكبيرة ، قيل انه يحب الروث ، ويضرّ به ريح الورد .

والحجل ، واليعاسيب (١) ، والذباب ، والزنابير ، والجراد ، والنمل ، والفراش ، والبعوض ، والأَرَضة ، والنحل ، وغير ذلك ولا يسمّى بالطير . وقد يُقال لها ذلك عند الذكر والسبب . وقد يسمّون الدجاج طيراً ، ولا يسمّون بذلك الجراد ، والجراد طير والمثل المضروب به اشهر . والملائكة تطير ولها اجنحة ، وليست من الطير . وجعفر ابن ابي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، وليس جعفر من الطير . واسم « طائر » يقع على ثلاثة اشياء : صورة ، وطبيعة ، وجناح . وليس بالريش ، والقوادم ، والأباهر (٢) ، والخوافي ، يسمّى طائراً ؛ ولا بعدمه يسقط ذلك عنه . الا ترى ان الخفّاش والوطواط من الطير ، وإن كانا أمرَطَين ليس لهما ريش ، ولا زغب ، ولا شكير (٣) ، ولا قصب . وهما مشهوران بالحمل والولادة والرضاع ، وبظهور حجم الآذان ، وبكثرة الاسنان . والنعامة ذات ريش ، ومنقار ، وبيض ، وجناحين ، وليست من الطير

تحديد السمك

وليس ايضاً كل عائمٍ سمكة ، وان كان مناسباً للسمك في كثير من معانيه . ألا ترى أن في الماء كلبَ الماء ، وعنز الماء ، وخنزير الماء ، وفيه الرقّ (٤) والسلحفاة ، وفيه الضفدع ، وفيه السرطان ، والتمساح ، والدخس (٥)

---

١) اليعسيب : ج. اليَعسوب : امير النحل واكبرها ؛ طائر اصغر من الجرادة ، لا يضم جناحه اذا وقع .   ٢) الأباهر : ج . الأبهر : الجانب الاقصر من ريش الطير .   ٣) الشكير : ما ينبت من صغار الشعر والريش والعفاء بين كباره .   ٤) الرقّ : العظيم من السلاحف .
٥) الدُخَس : والتُخَس : من نوع الدلفين : دابة بحرية من ذوات الاثداء .

والدلفين، واللخم(١ ، والبلبل(٢ ، وغير ذلك من الأصناف ؛ والكوسج والد اللخم ، وليس للكوسج أبٌ يُعرف . وعامّة ذا يعيش في الماء ، ويبيت خارجاً عن الماء ، ويبيض في الشطّ ، ويبيض بيضاً له صُفرة وقَيض (٣ وغِرْقئ (٤ وهو مع ذلك مما يكون في الماء مع السمك

الفصيح والاعجم

ثم لا يخرج الحيوان بعد ذلك ، في لغة العرب ، عن فصيح وأعجم . كذلك يُقال في الجملة . كما يُقال : « الصامت » لمن لا يصنع صمتاً قط . والناطق لمن لم يتكلم قط فيحملون ما يرغو ، ويثغو ، وينهق ، ويصهل ، ويشحج ، ويخور ، ويبغم ، ويعوي ، وينبح ، ويزقو ، ويضغو ، ويهدر ، ويصفر ، ويصوصي ، ويقوقي ، وينعب ، ويزأر ، ويكشّ ، ويعجّ (٥ ، على نطق الانسان اذا جُمع بعضه الى بعض . ولذلك اشباه : كالذكور والإناث اذا اجتمعتا (٦ ، وكالعَير التي تُسمّى لطيمة ، وكالظُعن . فان هذه الاشياء ، اذا وُجد بعضها الى بعض ، او أُخذ بعضها من بعض ، سُمّيتا بأنبه النوعين ذكرًا وباقواهما

---

١) اللخم : سمك بحري يقال له ايضاً الكوسج يُعرف بمنشار في فمه .

٢) البلبل : سمك على قدر الكفّ .

٣) القيض : قشرة البيضة العليا اليابسة .

٤) الغِرقئ : قشرة البيضة الرقيقة التي تحت القيض .

٥) كل هذه كلمات وضعية لأصوات الحيوان .

٦) يعني اذا اجتمع الذكور والاناث تكلّم عنهم الانسان بصيغة الذكور ، لانهم انبه واقوى منهنّ ، كما يشرح الجاحظ في الجملة التابعة .

والفصيح هو الانسان. والأعجم كل ذي صوت لا يفهم إرادته الّا من كان من جنسه. ولعمري انّا لنفهم عن الفرس، والحمار، والكلب، والسنّور، والبعير، كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوره، كما نفهم ارادة الصبيّ في مهده. فنفهم، وهو من جليل العلم، ان بكاءه يدلّ على خلاف ما يدلّ عليه ضحكه. والانسان فصيح، وان عبّر عن نفسه بالفارسيّة، او بالهندية، او بالرومية. وليس العربي اسوأ فهماً لطمطمة الرومي، من الرومي لبيان لسان العربي. فكل انسان، من هذا الوجه، يقال له: «فصيح». فاذا قالوا: «فصيح واعجم»، فهذا هو التأويل في قولهم: «اعجم». واذا قالوا: «العرب والعجم»، ولم يلفظوا «بفصيح واعجم»، فليس هذا المعنى يريدون؛ انما يعنون انه لا يتكلم بالعربية، وان العرب لا تفهم منه

العود الى الصامت والناطق من الحيوان

ويقال: «جاء بما صأى وصمت!» (١ فالصامت مثل الذهب والفضة. وقوله: «صأى» يعني الحيوان كلّه، ومعناه: نطق، وسكت. فالصامت في كل شيء، سوى الحيوان

الدليل والمُستدِلّ

ووجدنا كون العالم فيه حكمة. ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جُعل حكمة، وهو لا يعقل الحكمة، ولا عاقبة الحكمة. وشيء جُعل

---

١) صأى: الفرخُ: صاح. والجملة مَثَل معناه: اتى المال الصائح والصامت، اي بالماشية، والفضة والذهب.

حكمة ، وهو يعقل الحكمة ، وعاقبة الحكمة . فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل ، في جهة الدلالة على أنه حكمة ؛ واختلفا من جهة أنَّ احدَهما دليلٌ لا يستدِلّ ، والآخر دليل يستدِلّ . فكل مستدلّ دليل ؛ وليس كل دليل مستدلًا

البيان

في العاقل وغير العاقل

فشارك كلُّ حيوان ، سوى الإنسان ، جميعَ الجماد في الدلالة ، وفي عدم الاستدلال ؛ وسمّوا ذلك «بياناً» . واجتمع الانسان بأن كان دليلًا مستدلًا . ثم جُعل للمستدلّ سببٌ يدلّ على وجوه استدلاله ، ووجوه ما انتج له الاستدلال ، وسمّوا ذلك «بياناً»

وجُعل البيان على اربعة اقسام : لفظ ، وخطّ ، وعقد ، واشارة . وجُعل بيان الدليل ، الذي لا يستدلّ ، تمكينه المستدلّ من نفسه ، واقتياده كل فكر فيه الى معرفة ما استخزن من البرهان ، واخفى من الحكمة ، واودع من عجيب الحكمة . فالأجسام الخرس الصامتة ناطقةٌ من جهة الدلالة ، ومُعْربة من جهة صحّة الشهادة . على ان الذي فيها من التدبير والحكمة مُخبِرٌ لمن استخبره ، وناطقٌ لمن استنطقه ؛ كما يخبر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال ، وكما ينطق السِمَن وحسن النضرة عن حسن الحال . وقد قال الشاعر :

فعاجوا ، فأثنوا بالذي انت اهله ؛ ولو سكتوا ، أثنَت عليك الحقائبُ (١)

---

(١) عاجوا : وقفوا في المكان : مالوا ؛ المكان : اقاموا فيه . الحقائب : ج . حقيبة : خريطة يضع فيها المسافر زاده وحوائجه .

وقال آخر :

متى تكُ في صديقٍ او عدوٍّ تخبّرْكَ العيونُ عن القلوب !

وقد قال العكلي (١ في صدق الذئب ، وفي شدّة حسّه واسترواحه :

يستخبرُ الريحَ ، اذا لم يسمعِ !

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه :

سَل الأرض ، فقل : من شقّ انهارك ؟

فإن لم تُجبك حوارًا ، (٢ اجابتك اعتبارًا . فموضوع الجسم ونُصبته (٣ دليلٌ على ما فيه . فالجماد الأبكم الأخرس ، من هذا الوجه ، قد شارك في البيان الانسان الحيّ الناطق

فمن جعل اقسام البيان خمسة ، فقد ذهب ايضاً مذهباً له جواز في اللغة ، وشاهد في العقل . فهذا احد قسمي الحكمة ؛ واحد معنيي ما استخزنه الله تعالى من الوديعة

والقسمة الأخرى ما اودع صدورَ صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف ، وفطرها عليه من غريب الهدايات ، وسخّر حناجرَها له من ضروب النغم الموزونة ، والاصوات الملحّنة ، والمخارج الشجيّة ، والاغاني المُطربة . فقد يُقال ان جميع اصواتها معدّلة ، وموزونة موقّعة . ثم الذي سهّل لها من لرفق العجيب في الصنعة مما ذلّله الله تعالى لمناقيرها ، واكفّها . وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيّأ لها من الآلات .

---

١) العكلي : هو النمر بن تولب ، من الشعراء المخضرمين († ٦٤٥) كان مقلًّا في شعره ، يحسن بعض الأحيان ، وهو من اصحاب المجمهرات .

٢) حوارًا : جوابًا ، كلامًا .

٣) نُصبَته : اي ظاهره ، هيئته الخارجية .

وكيف اعطى كثيراً منها من الحسّ اللطيف والصنعة البديعة ، من غير تأديب وتثقيف ، ومن غير تقويم وتلقين ، ومن غير تدريج وتمرين . فبلغت بعفوها (١ وبمقدار قوى فطرتها من البديهة والارتجال ، ومن الابتداء والاقتضاب ، ما لا يقدر عليه حُذّاق رجال الرأي ، وفلاسفة علماء البشر بيدٍ ولا آلة . بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالاً ، وأتمهم خِلالاً ، لا من جهة الاقتضاب والارتجال ، ولا من جهة التعسُّف والاقتدار ولا من جهة التقدّم فيه ، والتأني فيه ، والتأتي(٢ له ، والترتيب لمقدّماته ، وتمكين الاسباب المُعينة عليه . فصار جملة الانسان الثاقب الحسّ ، الجامع القُوى ، المتصرّف في الوجوه ، المقدّم في الامور ، يعجز عن عفو كثيرٍ منها . وهو ينظر الى ضروب ما يجيءُ منها كما أُعطِيت العنكبوت ، وكما أعطيت السُّرْفة (٣ ، وكما عُلّم النحل ، وعُرّف التَنَوُّط (٤ من بديع المعرفة ومن غريب الصنعة . ثم لم يوجدهم العجز في أنفسهم (٥ ، في اكثر ذلك ، الا بما قوي عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات : ليعلم الإنسان أن ذا العقل والتمكين والاستطاعة والتصريف ، وذا التكلّف والتجربة وذا التأني والمنافسة ، وصاحب الفهم والسابقة ، والمتبصّر شأن العاقبة ،

---

١) العَفو : من المال : ما يفضل وما لا عسر على صاحبه في اعطائه . وهنا : ما يحدث دون كلفة ، وهو قريب من الفطرة والبديهة .

٢) التأتي : مصدر تأتّى للأمر : ترفّق له ، واحتال لنيله .

٣) السُّرْفَة : دويبّة سوداء الرأس وسائرها احمر ، تتّخذ لنفسها بيتاً من دقاق العيدان ، تضمّ بعضها الى بعض بلُعابها ، وتدخله ، فتموت فيه .

٤) التَنَوُّط : والتُنوّط : واحدتُه : تَنَوُّطة ، وتُنَوِّطة : طائر يدلي خيوطاً من شجرة وينسج عشّه كالقارورة ، منوطاً بتلك الخيوط .

٥) انفسهم : الضمير للناس .

متى أحسن شيئاً كان كلُّ شيء دونه في الغموض عليه أسهل . وجعل (١ سائر الحيوان ، وإن كان يُحسن احدُهـا ما لا يُحسن احذقُ الناس ، متى أحسن شيئاً عجيباً لم يُمكنه أن يُحسن ما هو أقرب منه في الظنّ ، وأسهل منه في الرأي ؛ بل لا يُحسن ما هو اقرب منه في الحقيقة . فلا الانسان جعل نفسه كذلك ؛ ولا شيء من الحيوان اختار ذلك . فأحسنت هـذه الاجناس بلا تعلّم ما يمتنع على الانسان وإن تعلّم . فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدها اذ لا يؤمّل اللحاق بها

ثم جعل ، تعالى وعزّ ، هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين ، وتجاه اسماع المعتبرين . ثم حثّ على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتّعاظ والازدجار ، وعلى التعرُّف والتبيُّن ، وعلى التوقُّف والتذكُّر . فجعلها مذكّرة منبّهة ؛ وجعل الفكر يُنشيء الخواطر ، وتجول باءلها في المذاهب . ذلك الله ربّ العالمين ، فتبارك الله أحسن الخالقين !

عود الى هذا الكتاب

وهذا كتاب موعظة ، وتعريف ، وتفقُّه ، وتنبيه . وأراك قد عِبْتَه ، قبلَ أن تقف على حدوده ، وتتفكّر في فصوله . . . وقد غلطك فيه بعض ما رأيتَ من مزح لم تَعرف معناه ، ومن بطالة لم تطّلع على غورها ، ولِمَ تدرِ لِمَ اجتُلبت ، ولا لأيّ علّة تُكلّفت ، وأيّ شيء أُريغ (٢ بها ، ولأي جدّ احتُمل ذلك المزل ، ولأيّ رياضة تُجشّمت تلك البطالة .

---

١) جعل : الضمير للخالق .

٢) أُريغ : مجهول أراغ : اراد ، طلب .

ولم تَدْرِ أن المزاح جِدٌّ، اذا اجتُلب ليكون علّةً للجدّ؛ وأن البطالة وقارٌ ورزانةٌ، اذا تُكلّفت لتلك العاقبة. ولما قال الخليل بن أحمد: «لا يصل احدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه، حتى يتعلّم ما لا يحتاج اليه.»، قال ابو شمر: «اذا كان لا يتوصّل الى ما يحتاج اليه الا بما لا يحتاج اليه، فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه.»

وذلك مثل كتابنا هذا. لأنه ان حملنا جميع من يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرّ الحقّ، وصعوبة الجدّ، وثقل المؤونة، وحلية الوقار، لم يصبر عليه، مع طوله، الا من تجرَّد للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته واستشعر قلبه من عزّه، ونال من سروره؛ على حسب ما يورث الطول من الكدّ، والكثرة من السآمة

منافع الكتب

يتخلّص الجاحظ من سرد منافع كتابه خاصّة الى منافع الكتب على الجملة. وهذا اهمّ قسم في مقدّمته، فيقول مخاطباً المنتقِد :

ثم لم أرَكَ رضيتَ بالطعن على كل كتابٍ لي بعينه، حتى تجاوزت ذلك الى أن عِبتَ وضع الكتب كيف ما دارت بها الحال، وكيف تصرف بها الوجوه. وقد كنت اعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عِبت الكلَّ بلا علم. ثم تجاوزت ذلك الى نصب الحرب؛ فعبت الكتاب. ونعمَ الذخر والعقدة هو! ونعم الجليس والعدّة! ونعم النشرة والنزهة! ونعم المشتغَل والحرفة! ونعمَ الأنيس ساعة الوحدة! ونعمَ المعرفة ببلاد الغُربة! ونعمَ القرين والدخيل! ونعمَ الوزير والنزيل!

والكتاب وعاء مُلِئَ علماً ، وظَرْفٌ حُشِي ظُرفاً ، وإناء شُحن مزاحاً وجِدًّا . ان شئتَ كان أبينَ من سحبان وائل (١ ؛ وان شئتَ كان اعيا من باقل (٢ . وان شئتَ ضحكتَ من نوادره ؛ وان شئتَ عجبتَ من غرائب فرائده . وان شئتَ الهتكَ طرائفُه ؛ وإن شئتَ أشجتكَ مواعظه ، ومن لكَ بواعظٍ مُلهٍ ، وزاجرٍ مُغرٍ ؛ وبناسكٍ فاتك ، وبناطق اخرس ، وببارِدٍ حارّ ! وفي البارد الحارّ يقول الحسن بن هاني (٣ :

سخنتَ من شدّة البرودة حتى صرت ، عندي ، كأنّك النارُ !
لا يعجب السامعون من صفتي ، كذلك الثلجُ باردٌ ، حارُ !

ومن لكَ بطبيب اعرابي ! ومن لكَ برومي هندي ، وبفارسي يوناني ! وبقديم مولّد ، وبميت ممتَّع ! ومن لكَ بشيء يجمع لكَ الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والخفي والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضدّه !

وبعد فتى رأيتَ بستاناً يُحمل في ردن ، وروضةً تُقلب في حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ، ويُترجم عن الأحياء . ومن لكَ بمؤنس لا ينام الّا بنومك ، ولا ينطق الّا بما تهوى ! آمَن من الأرض ! واكتم للسرّ من صاحب السرّ ! واحفظ للوديعة من ارباب الوديعة !

---

١) سحبان وائل : من اشهر خطباء العرب في العصر المخضرم والاموي († ٦٧٤) يُضرب به المثل في الفصاحة ، ويُروى له بعض خطب دينية وسياسية.

٢) باقل : رجل من ربيعة . بلغ من عيّه انه اشترى ظبياً باحد عشر درهماً . فسأله احدهم : « بكم اشتريت الظبي ؟ » فمدّ يديه ودلع لسانه ، يريد احد عشر. فأفلت الظبي .

٣) الحسن بن هاني : هو المعروف « بابي نُواس » (٧٦٢ — ٨١٤) اشهر شعراء العصر العباسي الاول في الدعابة والمجون والخمريات .

وقد قــال ذو الرُّمة (١ لعيسى بن عُمر : «اكتبْ شعري ، فالكتاب احبّ اليّ من الحفظ ! » لان الاعرابي ينسى الكلمة قد سهر الشاعر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم يُنشدها النــاس . والكتابُ لا ينسى ، ولا يبدل كلاماً بكلام

وعِبتَ الكتاب ولا اعلم جارًا أبرّ ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً اظهر كفاية ، ولا اقلّ جناية ، ولا أقلّ إملالًا وإبراماً ، ولا اجمل اخلاقاً ، ولا اقلّ خلافاً واجراماً ، ولا اقلّ غيبة ، ولا ابعد من عضيهة (٢ ، ولا اكثر اعجوبة وتصرُّفاً ، ولا اقلّ تصلفاً وتكلفاً ، ولا ابعــد من مراد ، ولا اترك لشغب ، ولا ازهد في جدال ، ولا اكفّ عن قتال من كتاب ! ولا اعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا اعجل مكافاة ، ولا احضر معونــة ، ولا أخفّ مؤونة ؛ ولا شجرة أطول عمرًا ، ولا اجمع امرًا ، ولا أطيب ثمرة ، ولا اقرب مجتنى ، ولا أسرع ادراكاً ، ولا اوجد في كل إبّان من كتاب ! ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وامكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ؛ ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الاذهان اللطيفة ؛ ومن الحِكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ؛ ومن الأَخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأَمثال السائرة ، والأُمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب !

---

١) ذو الرُّمة : (غيلان بن عقبة): من شعراء الدولة الأموية (٦٩٦ – ٧٣٦) كان بدوياً يأتي الحضر ، اكثر اشعــاره في الوصف ، واشتهر خاصة بوصف الثور الوحشي مع كلاب الصيد ، والإبل ، والاطلال .

٢) العضيهة : البهتان والكلام القبيح .

وهنا يذكر حاجة الناس بعضهم الى البعض وكيف انهم يحتاجون في ذلك الى البيان فيفصّل اقسام البيان على نحو ما تقــدّم ويرجع الى فضل الكتاب فيقول :

والكتاب هو الذي يؤدّي الى الناس كتب الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفّة نقله ، وصغر حجمه ، صامتٌ ما اسكتّه ، وبليغٌ ما استنطقتَه . ومن لك بمسامرٍ لا يبتديك في حال شغلك ، ويدعوك في اوقات نشاطك ، ولا يُحوجك الى التجمّل له والتــذمّم منه . ومن لك بزائر ان شئت جعل زيارته غِبّاً (١) ووروده خِمساً (٢) ، وان شئت لزمك لزوم ظلّك ، وكان منك مكان بعضك

والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك ، والصديق الذي لا يُغريك ، والرفيق الذي لا يملّك ، والمستميح الذي لا يشتريك ، والجـار الذي لا يستبطيك ، والصاحب الذي لا يُريد استخراج مـا عندك بالملق (٣) ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب

والكتاب هو الذي ان نظرت فيه اطال إمتاعك ، وشحذ طِباعَك ، وبسط لسانك ، وجوّد بنانك ، وفخّم الفاظك ، وبجّح (٤) نفسك ، وعمّر صدرك ، ومَنَحَك تعظيمَ العوامّ ، وصداقة الملوك . وعرفت به في شهر ما

---

١) الغبّ : مصدر غبّ : اتى زائراً بعد أيام .

٢) الخِمْس : من أظماء الإبل وهو ان ترعى ثلاثة ايام ، ولا ترد الماء الا في اليوم الرابع بعد يوم الشرب ومعنى الجملتين : ان الكتاب لا يزورك الا بعد ايام اذا اردت ذلك منه .

٣) المَلَق : مصدر مَلِقه ، ومَلِق له : تودّد اليــه ، وتذلّل له ، وابدى له بلسانه من الإكرام والمحبّة ما ليس في قلبه .

٤) بجّح : أفرح .

لا تعرفه من أفواه الرجال في دَهر ؛ مع السلامة من الغُرم ، ومن كدّ الطلب ، ومن الوقوف بباب المُكتسب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدي من انت افضل منه خلقاً ، واكرم منه عِرْقاً ؛ ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الاغبياء

والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ، ويطايع في السفر كطاعته في الحضر ، ولا يعتلّ بنوم ، ولا يعتريه كلال السهر . وهو المعلّم الذي ان افتقرت اليه لم يخفرك (١ ، وان قطعتَ عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة ؛ وان عُزلت لم يدع طاعتك ؛ وان هبّت ريح اعاديك لم ينقلب عليك . ومتى كنت منه متعلقاً بسبب ، او معتصماً بادنى حبل ، كان لك فيه غِنيً من غيره ، ولم تضطرك وحشة الوحدة الى جليس السوء

ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه اليك ، الّا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر الى المارّة بك ، مع ما في ذلك من التعرّض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، ومن عادة الحرص ، ومن ملازمة صغار الناس ، وحضور الفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، واخلاقهم الردّية ، وجهالاتهم المذمومة ، لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة

اقوال الناس في الكتاب

قال المهلّب لبنيه في وصيته : «يا بنيّ ، لا تقوموا في الاسواق الّا على زرّاد او ورّاق» . (٢ وحدّثني صديق لي قال : « قرأت على شيخ شامي

---

١) يخفرك : ينقض عهدك ، ويغدر بك .

٢) اراد الزرّاد ، وهو صانع الدروع المزرودة ، ليعوّد اولاده سماع اخبار الحروب ، والورّاق ليعوّدهم طلب العلم .

كتاباً فيه من مآثر غطفان، فقال: « ذهب المكارم الّا من الكتب! » وسمعتُ ابا الحسن اللؤلؤي يقول: « غبرت اربعين عاماً ما قِلتُ (١ ولا بِتُّ الا والكتاب موضوع على صدري! » وقال ابن الجهم: « اذا استحسنتُ الكتاب واستجدّته، ورجوت منه الفائدة، ورأيت ذلك فيه؛ فلو تراني، وانا ساعة بعد ساعة، انظر كم بقي من ورقه مخافةَ استنفاده، وانقطاع المادة من قلبه. وان كان المصحف عظيم الحجم، كبير الورق، كثير العدد، فقد تمّ عيشي وكمل سروري. » وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال: « لولا طوله، وكثرة ورقه انسخته. » فقال ابن الجهم: « لكني ما رغّبني فيه الّا الذي زهّدك فيه. وما قرأت قط كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة؛ وما أُحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت. »

وقال الخليل بن احمد: « تكثَّرْ من العلم لتعرف، وتقلّلْ منه لتحفظ. »

وقال ابو سحق: « القليل والكثير للكُتُب، والقليل وحدَه للصدر. » وانشد قول ابن يسير:

اما لو أعي كلَّ ما أسمعُ، واحفظُ من ذاك ما اجمعُ
ولم استفد غير ما قد جمعـ ـتُ، لقيل: هو العالِم المقنعُ!
ولكنَّ نفسي، الى كل نو عٍ من العلم تسمعه، تنزع.
ولا انا احفظ ما قد جمعـ ـتُ، ولا انا من جمعه أشبعُ
واحصر بالعيّ، في مجلسي؛ وعلمي في الكتب مستودَعُ!
فمن يك في علمه هكذا يكن، دهرَه، القهقرى يرجعُ!
اذا لم تكن حافظاً واعياً فجَمْعُك للكُتُبِ لا ينفعُ!

---

١) قِلت: من قال يقيل: نام في القائلة. اي منتصف النهار.

وقال ابن اسحق : « كلّف ابن يسير الكتب ما ليس عليها . إن الكتب لا تُحيي الموتى ، ولا تحوّل الأحمق عاقلاً ، ولا البليـد ذكياً . ولكن الطبيعـة اذا كان فيها ادنى قبول ، فالكتب تشحذ ، وتفتق ، وتُرهف، وتشفي. ومن اراد ان يعلم كلَّ شيء، فينبغي لأهله ان يداووه ؛ فان ذلك انما تصوّر له بشيء اعتراه . فمن كان ذكيًّا حافظاً ، فايقصد الى شيئين ، والى ثلاثة اشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة ؛ ولا يدع ان يمرّ على سمعه ، وعلى بصره ، وعلى ذهنه ، ما قدر عليه من سائر الاصناف . فيكون عالمًا بخواصّ ، ويكون غير غفل من سائر مـا يجري فيه الناس ويخوضون فيه . ومن كان ، مع الدرس ، لا يحفظ شيئاً الا نسي ما هو اكثر منه ، فهو من الحفظ من افواه الرجال أبعد

وانشد رجلٌ يونسَ النحوي :

استودع العلم قرطاساً ضيّعه ، فبئس مستودع العلم القراطيسُ !

فقال يونس : «قاتله الله ! ما اشدّ ضنانته بالعلم ، وأحسن صيانته له ! ان علمك من روحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الروح ، وضَع مالك بمكان البَدَن ! »

ولقد دخلت على اسحق بن سليمان في إمرتـه ، فرأيت السِماطين (١ والرجال مثولًا كأنَّ على رؤوسهم الطـير (٢ ورأيت فرشته وبزّته . ثم دخلت عليه ، وهو معزول ، واذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط (٣

١) السماط : الصفّ . المراد بالسماطين : صفيّ الرجال بين يدي الأمير .
٢) كأن على رؤوسهم الطير : مثل يضرب للسكون والرزانة . واصله ان الغُراب يَقع على رأس البعير فيلقط منه القُراد فلا يتحرّك البعير لئلا يطير الغراب
٣) الأسفاط : ج . سَفَط : وعاء كالجُوالق او كالقفّة ، الصندوق الصغير .

والرقوق (١) والقماطر (٢) والدفاتر والمساطر والمحابر. فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم؛ لانه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة

وقال ابن داحة: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ابن الخطّاب، لا يجالس الناس؛ ويتزل مقبرة من المقابر. وكان لا يكاد يُرى الّا وفي يده كتاب يقرأه. فسُئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة، فقال: «لم أرَ أوعظ من قبر، ولا امنع من كتاب، ولا أسلم من الوَحدَة!» فقيل له: «قد جاء في الوَحدة ما جاء!» فقال: «ما أفسدَها للجاهل!»

فضل الخط

وكانوا يجعلون الكتاب حَفرًا في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وحلقةً مركّبة البنيان. فربما كان الكتاب هو الناتئ؛ وربما كان الكتاب هو الحَفر، اذا كان تاريخاً لأمر جسيم، او عهدًا لأمرٍ عظيم، او موعظة يُرتجى نفعها، او إحياء شرف يريدون تخليدَ ذكره. كما كتبوا على قُبّة غُمدان (٣) وعلى باب القيروان (٤) وعلى باب سَمَرْقَند (٥) وعلى

---

١) الرقوق: ج. رَقّ: جلد رقيق يُكتب فيه.

٢) القماطِر: ج قِمَطْرَة: وعاء من خشب او جلد تُصان فيه الكتُب.

٣) غُمدان: قصر فخم في اليمن، كان يسكنه التبابعة. واختُلف في بانيه ويُنسب الى سليمان الحكيم. وقد هُدم في ايام عثمان بن عفّان.

٤) القيروان: مدينة في تونس بناها عُقبة بن نافع سنة ٦٦٩، فيها جامع كبير، وزوايا، وقُبب مشهورة. يبلغ عدد سكانها اليوم ٢٥ الفاً.

٥) سَمَرْقَند: مدينة في بلاد التركستان (وراء النهر) قيل انها من بناء

عمود مَأْرب (١ ، وعلى الركن المشقَّر (٢ ، وعلى الأَبلَق الفَرْد (٣ ، وعلى باب الرُها (٤ ؛ يعمدون الى الاماكن المشهورة ، والمواضع المذكورة ، فيضعون الخطّ في ابعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ، وأجدر أن يراها من مرَّ بها ، ولا تُنسى على وجه الدهر

واقول لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك وكل إقطاع وكل اتفاق ، وكل عهد وعقد ، وكل جوار وحِلف . . .

الكلام والكتابة

وليس بين الرقوم والخطوط فرق . ولا بين الحروف المجموعة المصوَّرة من الصوت المقطَّع في الهواء ، والحروف المجموعة المصوَّرة من السواد في القرطاس فرق . واللسان يصنع في حَويّة (٥ الفم ، وفي خارجه ، وفي لهاته وباطن اسنانه ، ما يصنع القلم في المداد والليقة والهواء والقرطاس . وكلها صُوَر وعلامات ، وخلق مواثل ودلالات . فيعرف منها ما كان في تلك

الاسكندر . كانت عاصمة تيمورلنك وازدهرت في القرن الخامس عشر بعلومها وجامعتها ، يبلغ عدد سكانها اليوم نحو ٥٠ الفاً .

١) مَأرِب : قرية في بلاد الأزد من اليمن بين حضرموت وصنعاء ، اشتهرت بالسدّ وخرابه ، وقصة « سيل العرِم » .

٢) المشقّر : حصن بين نجران والبحرين قيل انه من بناء طسم ، وقيل انه من بناء سليمان الحكيم .

٣) الأبلق : حصن السموْأل المشهور . كان مُشرفاً على تيماء بين الحجاز والشام . سمي الأَبلق لانه كان في بنائه بياض وحمرة .

٤) الرُها : مدينة قديمة بالجزيرة بين الموصل والشام ، كانت تسمَّى عند اليونان والرومان « اوذاسا » واسمها اليوم «اورفا» ويبلغ عدد سكانها ٥٥ الفاً .

٥) حَويّة : استدارة كل شيء .

الصور لكثرة ترددها على الأسماء ؛ ويعرف منها ما كان مصوّرًا من تلك الألوان لطول تكرارها على الابصار . كما استدلوا بالضحك على السرور ، وبالبكاء على الألم . وعلى مثل ذلك ، عرفوا معاني الصوت ، وضروب صوَر الإشارات ، وصور جمع الهيآت . كما عرف المجنون لقبه ، والكلب اسمه . وعلى مثل ذلك فهم الصبيّ الزّجر والاغراق ، وبمثل ذلك اشتدَّ حضَر الدابة مع رفع الصوت حتى اذا رأى سائسه حمحم . واذا رأى الحمام القَيّم عليه ، انحطّ للقط الحبّ قبل ان يُلقى له ما يلقطه . ولولا الرسوم ونقوش الخواتم لَدَخل على الأَموال الخللُ الكثير ، وعلى خزائن الناس الضرر الشديد

الخطّ عند الامم

وليس في الأَرض أُمّة بها طُرُق أو لها مُسكة(١) ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، الا ولهم خطّ . فاما اصحاب الملك والمملكة والسلطان والجباية والديانة والعبادة ، فهناك الكتاب المُتقَن ، والحساب المُحكَم

آثار العرب والعجم

قال الهيثم وابن الكلبي وابو عبيدة : فكلّ أُمّة تعتمد في استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها ، على ضَربٍ من الضروب ، وشكلٍ من الأشكال . وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بان تعتمد في

---

١) مُسكة : ما يُتمسّك به اي ما يُتبلّغ به من طعام وشراب ؛ الرأي والعقل الوافر يُرجَع اليه . والمقصود : ان ليس في الارض أُمّة لها شيء من الحضارة إلّا . . .

ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفّى ، وكان ذلك هو ديوانها ؛ وعلى ان الشعر يفيد فضيلة البيـان على الشاعر الراغب والمادح ، وفضيلة المأثرة على السيّد المرغوب اليه ، والممدوح به

وذهبت العجم على ان تقيّد مآثرها بالبنيان ، فبنوا مثل كرد بيداد وبنى اردشير بيضاء اصطخر(١) ، وبيضاء المدائن(٢) ، والحضر ، والمدن ، والحصون ، والقناطر ، والجسور ، والنواويس

قال : ثم ان العرب أحبّت ان تشارك العجم في البناء ، وتتفرّد بالشعر ، فبنوا غُمدان ، وكعبة نجران (٣) ، وقصر مارد (٤) ، وقصر مأرِب ، وقصر شَعوب (٥) ، والأبلق الفرد . وغير ذلك من البنيان . قال : ولذلك لم تكن الفرس تُبيح شريف البنيـان ، كما لا تُبيح شريف الاسماء ، الّا لاهل البيوتات ، كصنيعهم في النواويس ، والحمّامات ، والقباب الخضر ، والشُرَف على حيطان الدار ، وكالعَقْد على الدهليز ، وما اشبه ذلك

فضل الكتب على البنيان في تأييد المآثر

والكتب بذلك اولى من بنيـان الحجارة وحيطان المدَر . لان من

---

١) بيضاء اصطخر : اكبر مدينة في كورة اصطخر ، سُمّيت «البيضاء» لان لها قبة يظهر بياضُها عن بُعد .

٢) المدائن : عاصمـة الأكاسرة الشهيرة ، كانت مؤلفة من سبع مدن فُتِحت كلّها على يد سعد بن ابي وقّاص سنة ٦٣٨ .

٣) كعبة نجران : كنيسة بنـاها بنو عبد المدان في نجران من اليمن ، على طراز كعبة مكة وعظّموها مضاهاة للكعبة .

٤) مارد : حصن للسموأل كان بدومة الجَندل .

٥) قصر شَعوب : قصر في اليمن مشهور بالارتفاع .

شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم ، وان يميتوا ذكرَ اعدائهم . فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون . كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية . وعلى ذلك هم في أيام الاسلام ؛ كما هــدم عثمان صومعة غُمدان ، وكما هدم الآطام (١ التي كانت بالمدينة ؛ وكما هدم زياد كلَّ قصرٍ ومصنع كان لابن عامر ؛ وكما هدم اصحابنا بنــاء مدن الشامات لبني مروان

الشعر

قصوره عن الكتابة — استحالة ترجمته

واما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السنّ ، اول من نهج سبيله وسهّل الطريق اليــه امرؤ القيس ابن حجر ، ومهلهل ابن ربيعة . وكتب ارسطاليس ومعلّمه افلاطون ، ثم بطليموس وبقراط ، وفلان ، وفلان ، قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب . . . فاذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له الى ان جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام . واذا استظهرنا بغاية الاستظهار ، فمائتي عام

قال : وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب وعلى من تكلّم بلسان العرب . والشعر لا يُستطاع ان يُترجم ، ولا يجوز عليه النقل . ومتى حُوّل تقطّع نظمُه ، وبطل وزنُه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور . والكلام المنثور ، المبتدأ على ذاك ، احسن واوقع من المنثور الذي حُوّل عن موزون الشعر

---

١) الآطام : ج . أُطم : الحصن .

قال : وجميع الأمم يحتاجون الى الحِكَم في الدين ، والحكم في الصناعات ، والى كل ما اقام لهم المعاش، وبوّب لهم أبواب الفِطَن، وعرّفهم وجوه المرافق . حديثهم كقديمهم ، وأسودهم كأحمرهم ، وبعيدهم كقريبهم ؛ والحاجة الى ذلك شاملة لهم . وقد نُقلت كتب الهند ، وتُرجمت حِكَم اليونان ، وحُوِّلت آداب الفُرس . فبعضها ازداد حُسناً ، وبعضها ما انتقص شيئاً . ولو حُوّلت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن . مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وُضعت لمعاشهم، وفطنهم وحِكمهم . وقد نُقلت هذه الكتب من امّة الى أُمة ، ومن قَرنٍ الى قَرن ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت الينا وكنّا آخر من ورثها ونظر فيها . فقد صحّ ان الكتب أبلغ في تأييد المآثر من البيان والشعر

جواب من يحتجّ للشعر

عجز الترجمان وما يجب عليه

ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له : ان الترجمان لا يؤدّي ابدًا ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيّات حدوده . ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ، ويؤدي الامانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على المُجري . وكيف يقدر على ادائها ، وتسليم معانيها ، والاخبار عنها على حقها وصدقها ، الّا ان يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ؟ فمتى كان ، رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ،

وابن ناعمــة ، وابو قرّة ، وابن فهر ، وابن وهيلي ، وابن المقفّع مثل ارسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل افلاطون ؟

ولا بدّ للترجمان من ان يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة . وينبغي ان يكون اعلم النـاس باللغة المنقولة والمنقول اليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه ايضاً قد تكلّم بلسانين، علمنا انه قــد ادخل الضيم عليهما . لأنّ كلّ واحدة من اللغتين تجذب الاخرى، وتأخذ منها ، وتعترض عليها . وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكّنه ، اذا انفرد بالواحدة . وانمــا له قوة واحدة ؛ فان تكلّم بلغةٍ واحدة ، استفرغت تلك القوّة عليهــا . وكذلك ان تكلّم باكثر من لغتين . على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات . وكلما كان الباب من العلم اعسر واضيق ، والعلماء به اقلّ ، كان اشدّ على المترجم ، واجدر ان يُخطئ فيه . ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء . هذا قولنا في كتب الهندسة ، والتنجيم ، والحساب ، واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين واخبار عن الله عزّ وجلّ

ثم يذكر ما يلحق بالكتاب من الأغلاط عن طريق النقل والنسخ ، ويقول :

ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدي الجانية ، والأغراض المفسدة ، حتى يصير غلطاً صرفاً ، وكذباً مصمتاً . فما ظنّكم بكتاب يتعاقبه المترجمون بالإفساد ، ويتعاوره الخطّاط بشرٍّ من ذلك ! او بمثله كتاب متقادم الميلاد ، دهري الصنعة ! . قالوا : فكيف تكون هذه الكتب أنفع لاهلها من الشعر المقفّى ؟

جواب من يفضّل الكتب على الشعر

قال الآخر : اذا كان الأمر على مــا قلتم والشأن على ما نزلتم ، أليس معلوماً ان شيئاً هــذه بقيته وفضلته وسؤره (١ وصبابته ، وهذا مظهر حاله على شدّة الضيم ، وثبات قوّته على ذلك الفساد وتداول النقص ، حريٌّ بالتعظيم ، وحقيق بالتفضيــل على البيان ، والتقديم على شعر إن هو حُوّل تهافت ، ونفعه مقصور على اهله ، وهو يعــدّ من الأدب المقصور وليس بالمبسوط ، ومن المنافــع الاصطلاحية وليست بحقيقته بيّنة !

وكل شيء في العــالم من الصناعات ، والارفاق ، والآلات ، فهي موجودة في هذه الكتب دون الأشعار . وها هنا كتب هي بيننا وبينكم : مثل كتاب اقليدس ، ومثل كتاب جالينوس ، ومثل المجسطي مما تولّاه الحجّاج ؛ وكتب كثيرة لا تُحصى فيها بلاغ للنــاس . وان كانت مختلفة ومنقوحة مظلومة ، ومفسّرة ، فالباقي كافٍ شافٍ . فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا ، ومنتهى نفعه الى حيث انتهى بنا القول

ثم يذكر ما كتب القوم من لكتب في الفوائد والصناعات

الترغيب في اصطناع الكتب

ثم رجع بنا القول الى الترغيب في اصطناع الكتب ، والاحتجاج على من زرى على واضع الكتب ، فاقول :

ان من شكر النعمة في معرفــة مغاوي الناس ، ومراشدهم ،

---

(١) السؤر : في الاصل : بقية الماء التي يتركها الشارب في الإناء : البقية

ومضارّهم ، ومنافعهم ، ان يحتمل ثقل مؤونتهم في تقويمهم ، وان يتوخّى ارشادهم وان جهلوا فضلَ ما يُسدى اليهم . فلن يُصان العلم بمثل بذله ، ولن تُستبقى النعمة فيه بمثل نشره . على ان قراءة الكتب ابلغ في ارشادهم من تلاقيهم . اذ كان مع التلاقي يشتدّ التصنّع ، ويكثر التظالم ، وتفرط العصبيّة ، وتقوى الحميّة . وعند المواجهة والمقابلة يشتدّ حب الغلبة ، وشهوة المباهاة والرئاسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ، ويظهر التباين . واذا كانت القلوب على هذه الصفة ، وعلى هذه الهيئة ، امتنعت من التعرّف ، وعميت عن مواضع الدلالة . وليست في الكتب علّة تمنع من درك البُغية ، وإصابة الحجّة . لان المتوحّد يدرسها ، والمنفرد يفهم معانيها ، لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله ، وقد عدم مَن له يباهي ، ومن اجله يُغالب

والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويتقدّم مؤلفه ، ويرجّح قلمه على لسانه بأمور ، منها :

ان الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار . وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع في المسألة والجواب . ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته . وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره . ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودوّنت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنّا ، وفتحنا بها كلّ مستغلِق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم نكن ندركه

الا بهم ، لَما حسُن حظُّنا من الحكمة ، وَلضَعف سبَبُنا الى المعرفة . ولو لجأنا الى قدر قوّتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجاربنا لِما تُدركه حواسّنا وتشاهده نفوسنا ، لقلّت المعرفة ، وسقطت الهمّة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً ، ولَكَلّ الحدُّ ، وتبلّد العقل .

واكثر من كتبهم نفعاً ، واشرف منها خطراً ، واحسن موقعاً ، كتبُ الله تعالى التي فيها الهدى ، والاخبار عن كل حكمة ، وتعريف كلّ سيّئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الالواح ، والصحف ، والمحار (١ ، والمصاحف . وقال الله عزّ وجلّ : « آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٢ وقال : « ما فرّطنا في الكتاب من شيء » (٣ . ويقال لأهل التوراة والانجيل « اهل الكتاب »

الحثّ على نشر العلم

وينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أنّا قد وجدنا من العِبرة اكثر مما وجدوا ، كما ان من بعدنا يجد من العِبرة اكثر مما وجدنا . فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ؟ وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؟ وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى (٤ نجم التقيّد وهبّت ريح العلماء ، وكسد العيّ والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم . وليس يجد الانسان في كل حين إنساناً يدرّبه ، ومقوّماً يثقّفه ، والصبر على

---

١) المَحار : المحطوط .

٢) القرآن : سورة (٢ [البقرة] ١) .

٣) القرآن : سورة (٦ [الانعام] ٣٨) .

٤) خوى : النجمُ : مال الى المغيب .

إفهام الرّيض (١ شديد ، وصرفُ النفس عن مغالبة العـالم اشدّ منه . والمتعلّم يجد في كل مكان الكتاب عتيدًا ، وبما يحتاج اليه قائمًا . وما اكثر من فرّط في التعليم ايام خمول ذكره ، وايام حداثة سنه ! ولولا جياد الكتب وحسنها ، ومبينها ، ومختصرها ، لما تحرّكت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت الى حبّ الأدب ، وانفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو (٢ ، ولَدخل على هؤلاء من الخلل ، والمضرّة من الجهل وسوء الحال ، ما عسى ان لا يمكن الإخبار عن مقداره الّا بالكلام الكثير . ولذلك قال عُمر ، رضي الله تعالى عنه : « تفقّهوا قبل ان تسودوا ! »

واجبات الكاتب

الانتباه والحذر

وينبغي لمن كتب كتاباً ان لا يكتبه الّا على ان الناس كلّهم له اعداء ، وكلّهم عالم بالامور ، وكلّهم متفرّغ له . ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلًا ، ولا يرضى بالرأي الفطير . فان لابتداء الكتاب فتنةً وعجباً . فاذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فتوقّف عند فصوله توقُّفَ من يكون وزنُ طبعه في السلامة انقص من وزن خوفه من العيب

١) الرّيض : في الاصل : الدابّة اول ما تُراض ، هنا : المتعلّم في اول عهده .
٢) الحَشْو : والحِشْوة : صغار الناس ، رذالهم .

الايجاز — حبّ الانسان لكتابه

وما اكثر من يبتدئ الكتاب، وهو يريد مقدار سطرين، فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد

واعلم أن العاقل، إن لم يكن بالمتتبع، فكثيرًا ما يعتريه من ولده، أن يحسن في عينه منه المقبّح في عين غيره. فليعلم ان لفظه اقرب نسبًا منه من ابنه، وحركته امسّ به رَحِمًا من ولده. ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته

السهولة والإفهام

وليس الكتاب الى شيء احوج منه الى إفهام معانيه؛ حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية، ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السَفَلَة والحِشوَة، ويحطّه عن غريب الاعراب ووحشي الكلام

وليس له ان يهذّبه جدًا، وينقّحه، ويصفّيه، ويروّقه حتى لا ينطق الا بلبّ اللبّ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرّفه، واسقط زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوبَ فيه. فانه، ان فعل ذلك، لم يُفهم عنه إلّا بان يجدّد لهم افهاماً مرارًا وتكرارًا. لان الناس كلّهم قد تعوّدوا المبسوط من الكلام. وصارت افهامهم لا تزيد عاداتهم. الا ترى أن «كتاب المنطق» الذي قد وُسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الاعراب، لما فهموا اكثره. وفي كتاب اقليدس كلام يدور، وهو عربي، وقد صَفِي، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه؛ ولا يمكن ان يفهمه من

يريد تعلّمه لانه يحتاج الى ان يكون قد عرف جهة الأمر، وتعوّد اللفظ المنطقي الذي استُخرج من جميع الكلام

الايجاز ومواضعه

قال معاوية بن ابي سفيان (رضه) لصحار العبدي: «ما الايجاز؟» (١ قال: «أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تُخطئ!» قال معاوية: «أوَ كذلك تقول؟» قال صحار: «أقِلني يا اميرَ المؤمنين! لا تُخطئ ولا تُبطئ!». فلو أن سائلًا سألك عن الايجاز فقلت: «لا تُخطئ ولا تبطئ» وبحضرتك خالد بن صفوان، لما عرف بالبديهة، وعند اول وهلة أن قولك: «لا تُخطئ» متضمّن «بالقول»، وقولك: «لا تُبطئ» متضمّن «بالجواب». وهذا حديث، كما ترى، آثروه ورضوه

ولو ان قائلًا قال لبعضنا: «ما الايجاز؟» لظننت انه يقول: «الاختصار». والايجاز ليس يعني به قلّة عدد الحروف واللفظ. وقد يكون الباب من الكلام مَن اتى عليه فيما يسع بطن طومار (٢ فقد أوجز. وكذلك الإطالة. وانما ينبغي له ان يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ولا لترداده، وهو يكتفي من الافهام بشطره؛ فما فضَل عن المقدار فهو الخطَل

وقلتُ لأبي الحسن الأخفش: «أنت اعلم الناس بالنحو! فلِمَ لا تجعل كتبك مفهومة كلّها؟ وما بالنا نفهم بعضها، ولا نفهم اكثرها؟ وما

---

١) وفي العقد الفريد السؤال عن البلاغة لا الايجاز: والجواب بصيغة المتكلم راجع الروائع (٩ [العقد الفريد] ٧١).

٢) الطومار: الصحيفة ج. : طوامير.

بالك تقدّم بعض العويص، وتؤخّر بعض المفهوم ؟» قال: «انا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين. ولو وضعتُها هذا الموضع الذي تدعوني اليه ، قلّت حاجاتهم اليَّ فيها. وانما كانت غايتي المنالة ، فانا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا. وانما كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسّب ذهبت. ولكن ما بال ابراهيم النظّام، وفُلان، وفُلان، يكتبون الكتب لله ، بزعمهم ، ثم يأخذها مثلي في موافقته ، وحسن نظره ، وشدّة عنايته ، ولا يفهم اكثرها ؟»

ووجدنا الناس اذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا ، واذا انشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك اطالوا . وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ؛ وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز

التخلّص الى ذكر أبواب هذا الكتاب

ولولا اني أتكل على انك لا تمل باب القول في البعير حتى تخرج الى الفيل ، وفي الذرّة حتى تخرج الى البعوضة ، وفي العقرب حتى تخرج الى الحيّة ، وفي الرجل حتى تخرج الى المرأة ، وفي الذباب حتى تخرج الى الغربان والعقبان ، وفي الكلب حتى تخرج الى الديك ، وفي الذئب حتى تخرج الى السبع ، وفي الظِلف (١ حتى تخرج الى الحافر ، وفي الحافر حتى تخرج الى الخفّ ، وفي الخفّ حتى تخرج الى البُرْثُن (٢ ، وفي البُرْثُن حتى

---

١) الظِلف: للبقرة ، والشاة ، والظبي ، بمنزلة القدم للانسان ، والحافر للفرس ، والخفّ للبعير .

٢) البُرثُن : للطير كالاصبع للانسان ، والمِخلَب للسبع . وقد يُستعمَل المِخلب للطير ، والبرثن للسباع .

تخرج الى المِخْلَب · وكذلك القول في الطير وعامّة الأصناف · فرأيتَ ان جملة الكتاب ، وان كثر عدد ورقه ، أن ذاك ليس مما يملّ ، ويُعتد عليَّ فيه بالإطالة · لانه ، وان كان كتاباً واحدًا ، فانه كتب كثيرة وكل مصحف منها فهو امٌّ على حدة · فإن اراد قراءة الجميع لم يطُلْ عليه الباب الاول حتى يهجم على الثاني ، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث · فهو ابدًا مستفيد ومستظرف · ومتى خرج من آي القرآن صار الى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر · ثم يخرج من الخبر الى شعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حِكَم عقلية ، ومقاييس شداد · ثم لا يترك هذا الباب ، ولعلّه أن يكون أثقل والملال اليهِ أسرع ، حتى يُفضي به الى مزح وفُكاهة ، والى سخف وخرافة ؛ ولست اراه سخفاً اذ كنت اغا استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء ، ورأينا الله ، تبارك وتعالى ، اذا خاطب العرب والاعراب ، أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحي ؛ واذا خاطب بني اسرائيل او حكى عنهم ، جعله مبسوطاً وزاد في الكلام · فأصوب العمل اتباع آثار العلماء ، والاحتذاء على مثال القدماء ، والاخذ بما عليه الجماعة

عود الى منفعة الكتب

ثم يذكر بعض ابيات في صفة الكتب ، ويختم المقدّمة بقوله :

ومما يدلّ على نفع الكتاب انهُ ، لولا الكتاب ، لم يَجُزْ أن يعلم اهل الرَّقة ، والموصل ، وبغداد ، وواسط ، ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوةً فتعلم بها اهل البصرة قبل المساء

فهرس



المشرق

مجلة كاثوليكية شرقية

تبحث في العلم والادب والفن

تصدر مرة في الشهر في ثمانين صفحة كبيرة ، بتصاوير ورسوم عند اللزوم

بادارة اباء كلية القديس يوسف



اذا اردت ، ايها القارئ العزيز ، الاطلاع على :

احدث الآراء في العلم العصري ، واهم اكتشفاته ومخترعاته ،

اوفى الدروس النقدية في الآداب العربية، مع مقابلتها بالآداب الغربية،

اوسع الابحاث في مظاهر الفنّ العامّ ، لاسيا الشرقي منه ،

اوثق المصادر التاريخية للشرق عامّة وبلادنا خاصةً ،

اصدق الصور للحركة العصرية من دينية ، واجتماعية ، في العالم اجمع ، مع اصحّ الاخبار عنها ،

اطرف الروايات التاريخية اللاذة والمفيدة معاً ،

فبادر الى الاشتراك بمجلة « المشرق ».

بدل الاشتراك

في سورية ولبنان	٦٦ غرشاً ذهبياً
في الخارج	١٤ شليناً انكليزياً

الجاحظ

كتاب الحيوان

٢

الحيّات

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد إفرام البستاني

ستاذ الآداب العربية في كليّة القديس يوسف



المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٨

الجاحظ

؟ ٧٧٥ –

«كتب الجاحظ تعلّم العقل اولاً والادب ثانياً!»

(ابن العميد)

الرجل

وُلد ابو عثمان عمرو بن بحر في البصرة نحـو السنة ٧٧٥ . وكان من موالي كنانة ، بَشِعَ المنظر ، ناتئ العينين ، فلُقّب بالجاحظ . على انـه كان قوي الحافظة ، دقيق الذكاء ، سريع الفهم ، فرغب في الدرس ، وقرأ على النحاة واللغويين في البصرة ؛ ثم ارتحل الى بغداد ، دار العلم اذ ذاك ، فتتلمذ لابراهيم بن سيّار البلخي المعروف «بالنظّام» ، واخذ عنه الشيء الكثير من مبادئ المعتزلة ، واساليب الفلاسفة

ولم يلبث الجـاحظ ان بدأ بنشر التآليف في جميع الفنون . وكان في اول امره ينسب كتبه الى المشاهير من كتّاب الاقدمين كابن المقفّع حتى تسير بين الناس ، وتنال اعتبارهم ؛ فنجح في طريقتـه . واذ عرف القوم اسمه ، نال شهرة واسعة ، حتى ان المأمون طلبه ، وامتدحه ، وصدّره في ديوان الرسائل . ولكن الجاحظ استعفى بعد ثلاثة ايام فأُعفي

ثم اتصل بمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيّات ، من اشهر ساسة

ذاك العصر، فأكرمه. ولما صار ابن الزّيات وزيراً للخليفة الواثق سنة ٨٣٥، بلغ كوكب الجاحظ اقصى درجات اللمعان. غير ان هذا اللمعان لم يدم طويلاً لأن عدوّ ابن الزيات، القاضي احمد بن ابي دؤاد، انتصر عليه لما بويع بالخلافة للمتوكل سنة ٨٤٧، وهو عدوّ الحرية الفكرية والمعتزلين. فهرب الجاحظ واقام مدّة مختفياً خائفاً حتى أمّنه ابن ابي دؤاد، وطلبه. فاقام في حاشيته وحاشية وَلده حتى سنة ٨٥١

وكان اضطهاد المتوكل لأصحاب الآراء الحرّة يزداد يوماً فيوماً، ومرضُ الجاحظ يقوى عليه، فترك بغداد وانقطع في بيته بالبصرة، يرقب الحركة الادبية والسياسية، ويزوره الادباء العديدون فيفكّهم بذكر فالجه، ويمازحهم بطرق معيشته، فيرجعون معجبين، الى ان كانت سنة ٨٦٩ فانطفأ ذاك السراج

اما اخلاق الجاحظ فأخصّها الظرف والفكاهة، وعدم الاكتراث للامور، وان مهمّة؛ وحبّ التهكّم على كل شيء، ولو اداه ذلك الى ما لا تُحمد عقباه. هي غريزة الظرف رافقته في كل اعماله فصبغتها جميعاً بصبغة اللطف وخفة الروح. وقد توسعنا في حوادث حياته، ومرضه، واعماله، واخلاقه، في مقدمة الجزء السابق من الروائع، فليراجع ذلك من اراد

المفكر

مؤلفاته

قبل ان نبحث في آراء الجاحظ، وطرق تفكيره، يجدر بنا ان نلقي نظرة على كتبه المطبوعة وغير المطبوعة، المعروفة في عصرنا وغير المعروفة، الثابتة له وما نُسب اليه خطأً او ترجيحاً. ونحن نبدأ بالمطبوعة :

ا — كتاب الحيوان

سيأتي نكلام عليه

ب — كتاب البيان والتبيين (ويُقال: التبيُّن)

في الادب، والانشاء، والبيان، والخطابة والخطباء مع امثلة من خطب النبي والخلفاء. وفي السجع والتسميق، والتمر والشعراء، والنسّاك والزهّاد. وفي اللحن واللحّانين، والاحاديث والنوادر. وقد اهداه الجاحظ الى ابن ابي دؤاد. وهو في مجلّدين. طُبع طبعةً اولى في مصر سنة ١٣١١ — ١٣١٣ ﻫ. (١٨٩٣ — ١٨٩٥) وشرح بعض الفاظه حسن افندي العاكهاني. وقد طُبع مؤخرًا طبعةً جديدة في مصر ايضاً

منتخبات البيان والتبيين — فصول مختارة من الكتاب السابق — طبعت، مع اربع رسائل لغير الجاحظ، في مطبعة « الجوائب »، القسطنطينية سنة ١٣٠١ ﻫ. (١٨٨٣)

ج — كتاب البخلاء

درس اخلاقي انتقادي. طبعه المستشرق ڤون ڤلوتن (Van Vloten) في ليدن سنة ١٩٠٠

د — سلوة الحريف في المناظرة بين الربيع والخريف

طُبعت في مطبعة « الجوائب »، القسطنطينية سنة ١٣٠٢ (١٨٨٤)

هـ – مناقب الترك

طُبعت في مصر، في مطبعة جريدة «مصباح الشرق» سنة ١٨٩٨، ثم في ليدن

و – ثلاث رسائل: مناقب الترك، فخر السودان على البيضان، التربيع والتدوير

طُبعت في ليدن بعناية المستشرق ڤون ڤلوتن (Van Vloten) سنة ١٩٠٣

ز – احدى عشرة رسالة: الحاسد والمحسود، مناقب الترك، فخر السودان على البيضان، التربيع والتدوير، تفضيل النطق على الصمت، مدح التجّار وذمّ عمل السلطان، العشق والنساء، الوكلاء، استنجاز الوعد، بيان مذاهب الشيعة، طبقات المغنين

طُبعت في مصر سنة ١٣٢٤ هـ. (١٩٠٦)

ح – ثلاث رسائل: الردّ على النصارى، ذمّ اخلاق الكتّاب، القيان

طُبعت في مصر بعناية يوشع فِنكَل (Finkel) سنة ١٣٤٤ هـ. (١٩٢٦)

ط – فصول مختارة من كتب الجاحظ

طُبعت على هامش الجزء الثاني من كتاب «الكامل» للمبرّد، في مصر، سنة ١٣٢٤ هـ. (١٩٠٦)

اما ما طُبع منسوباً الى الجاحظ، ولم يثبت فهو:

ا – كتاب المحاسن والاضداد

طبعه المستشرق ڤون ڤلوتن (Van Vloten) في ليدن سنة ١٨٩٨. ثم طبعه في مصر محمد امين الخانجي سنة ١٣٢٤ هـ. (١٩٠٦)

ب – كتاب التاج

في اخلاق الملوك. طبعه احمد زكي باشا في مصر سنة ١٩١٤

ج — كتاب تهذيب الاخلاق

طبعه محمد كرد علي في دمشق سنة ١٩٢٤

د — كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير

طبعه محمد راغب الطباخ الحلبي في حلب سنة ١٩٢٨

ونحن نذكر الآن ما ذُكر في ثبت مؤلفات الجاحظ، ولم يُطبع على ما نعلم، نأخذ ذلك عن الجاحظ نفسه في مقدّمة كتاب الحيوان، وعن ياقوت في معجم الادباء:

كتاب النبي والمتنبي. كتاب المعرفة. كتاب جوابات كتاب المعرفة. كتاب مسائل كتاب المعرفة. كتاب الردّ على اصحاب الإلهام. كتاب نظم القرآن (ثلاث نسخ). كتاب مسائل القرآن. كتاب فضيلة المعتزلة. كتاب الردّ على المشبّهة. كتاب الإمامة على مذهب الشيعة. كتاب حكاية قول اصناف الزيديّة. كتاب العثمانية. كتاب الردّ على العثمانية. كتاب الاخبار وكيف تصحّ. كتاب عصام المريد. كتاب إمامة معاوية. كتاب إمامة بني العبّاس. كتاب الفتيان. كتاب القوّاد. كتاب اللصوص. كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة. كتاب صياغة الكلام. كتاب المخاطبات في التوحيد. كتاب تصويب علي في تحكيم الحكمَين. كتاب وجوب الإمامة. كتاب الاصنام. كتاب الشارب والمشروب. كتاب افتخار الشتاء والصيف. كتاب المعلّمين. كتاب الجواري. كتاب نوادر الحسن. كتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم. كتاب العرجان والبرصان. كتاب فخر القحطانية والعدنانية. كتاب الطفيليين. كتاب الفتيا. كتاب الردّ على اليهود. كتاب الصرحاء والهجناء. كتاب المعاد والمعاش. كتاب التسوية بين العرب والعجم. كتاب السلطان واخلاق اهله. كتاب الوعيد. كتاب البلدان. كتاب الاخبار. كتاب الدلالة على ان الإمامة فرض. كتاب الاستطاعة وخلق الافعال. كتاب الهدايا (منحول). كتاب الاخوان. كتاب الردّ على من ألحد في كتاب الله عزّ وجلّ. كتاب آي القرآن. كتاب الناشئ والمتلاشي. كتاب حانوت عطار. كتاب التمثيل. كتاب فضل العلم. كتاب المزاح والجدّ. كتاب جمهرة الملوك. كتاب

الصوالجة . كتاب ذمّ الزنا . كتاب التفكّر والاعتبار . كتاب الحجر والنبوّة . كتاب آل ابراهيم بن المدبّر في المكاتبة . كتاب احالة القدرة على الظلم . كتاب أمهات الأولاد . كتاب الاعتزال وفضله عن الفضيلة . كتاب الاخطار والمراتب والصناعات . كتاب احدوثة العالم . كتاب الردّ على من زعم ان الإنسان جزء لا يتجزأ . كتاب ابي النجم وجوابه . كتاب التفّاح . كتاب الانس والسلوة . كتاب الكبر المستحسن والمستقبح . كتاب نقض الطب . كتاب الحزم والعزم . كتاب عناصر الآداب . كتاب تحصين الأموال . كتاب الامثال . كتاب فضل الفرس . كتاب على الصلاج . كتاب الرسالة الى ابي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الاولياء . كتاب رسالة ابي النجم في الخراج . كتاب رسالته في القلم . كتاب رسالته في فضل اتخاذ الكتب . كتاب رسالته في كتمان السرّ . كتاب رسالته في مدح النبيذ . كتاب رسالته في ذمّ النبيذ . كتاب رسالته في العفو والصفح . كتاب رسالته في اثم السكر . كتاب رسالته في الأمل والمأمول . كتاب رسالته في الحلية . كتاب رسالته في ذمّ الكتّاب . كتاب رسالته في مدح الكتّاب . كتاب رسالته في مدح الورّاق . كتاب رسالته في ذمّ الورّاق . كتاب رسالته في من يسمّى من الشعراء عمرًا . كتاب رسالته اليتيمة . كتاب رسالته في فرط جهل يعقوب بن اسحق الكندي . كتاب رسالته في الكرم الى ابي الفرج بن نجاح . كتاب رسالته في موت ابي حرب الصفّار البصري . كتاب رسالته في الميراث . كتاب في الأسد والذئب . كتاب رسالته في كتاب الكيمياء . كتاب الاستبداد والمشاورة في حرب . كتاب رسالته في القضاة والولاة . كتاب الملوك والامم السالفة والباقية . كتاب رسالته في الردّ على القولية . كتاب العالم والجاهل . كتاب النرد والشطرنج . كتاب غش الصناعات . كتاب خصومة الحول والعور . كتاب ذوي العاهات . كتاب المغنّين . كتاب اخلاق الشطّار

آراؤه

في الفلسفة وعلم الكلام : « الجاحظيّة »

علمنا ان الجاحظ كان تلميذ النظّام . ومن ذكر النظّام ذكر إمام

المفكرين وشيخ المعتزلين، في ذاك العصر، يدرس ويدرّس ، فينمو المذهب المنتسب اليه وينتشر، مستفيداً من تلك الحريّة الفكريّة التي ميّزت خلافة المأمون . وكانت آراء المعتزلة قد تجاوزت آراء موسسها واصل بن عطاء (+٧٩٧) فدرس أئمتها، وفي اولهم النظّام ، كتبَ الفلاسفة اليونانيين ولاسيما الطبيعيين منهم كارسطو وتلامذته . واخذوا يطبقون تلك المبادئ على عقليّاتهم ، فحكّموا العقل في الوحي ، وعرضوا العقائد الدينية على القواعد المنطقية ، ورفضوا ما فاق منها العقل البشري. فتوصّلوا الى انكار الآيات والعجائب ، والى ان الانسان حرّ خالق لأعماله ، وتجاسروا فقالوا ان القرآن مخلوق

هذه كانت آراء المعتزلة اذ تبع الجاحظ استاذه النظّام في دروسه ، فعكف هو ايضاً على تفهّم فلسفة اليونان . على انـه لم يلبث ان شعر بجفاف تلك الاستنتاجات المنطقية ، فلجأ الى تطبيق مبادئه على التاريخ ، والاستعانة بالاختبـار في شرح غوامض المسائل . وكان له من آرائه الشخصية ما دفع عن بعض مقرّرات المعتزلين ، فانفرد عنهم وأسّس مذهباً جديداً في الفلسفة اللاهوتية ، او علم الكلام ، عُرف « بالجاحظيّة »

وكنّا نودّ لو وصلنا كتاب خاصّ للجاحظ في هذا المذهب ومبادئه وآرائه . ولكن هذا التمنّي لم يتحقق اولاً لأنه لم يصلنا شيء في ذلك ، ثانياً، ونظن هذا السبب الاقوى، لان الجاحظ لم يكن من الجَلَد على جانب كافٍ بحيث يُتعب ذهنه في تنسيق كتاب فلسفي وتبويبه بطريقة منطقية ، ونحن نعرف اسلوب الجـاحظ في الكتابة ، وعبثه الدائم بالترتيب والتقسيم . على اننا لم نعدم من اختصارات لمبـادئ الجاحظية اوردها

الشهرستاني في الملل والنحل،(١ والبغدادي في «الفرق بين الفِرَق» ؛ (٢ ونحن نوردها عنها، شارحين ما يلزم شرحه :

١ – المعارف كلها ضرورية طبيعية وليست باختيار العباد، اي لا حرِّيَّة لهم فيهـا

٢ – ليس للعباد كسب سوى الإرادة ، التي هي جنسٌ من الأعراض. اما الافعال فانها جبريَّة يأتيها العباد طبيعةً

والجاحظ يوافق ثمامة بن أشرس في هذا الرأي . وقد علّق البغدادي على هذا الزعم بقوله : ان كان « لا فعل للإنسان الّا الارادة ، لزمه ان لا يكون الانسان مصلياً ولا صـائماً ولا حاجّاً ولا زانياً ولا سارقاً ولا قاذفاً ولا قاتلًا . لانه لم يفعل عنده (اي عند الجاحظ) صلاةً ولا صوماً ولا حجاً ولا زنىً ولا سرقةً ولا قتلًا ولا قـذفاً . لان هذه الأفعال عنده غير الإرادة . واذا كانت هـذه الافعال التي ذكرناها عنده طباعاً لا كسباً، لزمه ان لا يكون للإنسان عليها ثواب ولا عقاب ، لأَن الإنسان لا يُثاب ولا يُعاقب على ما لا يكون كسباً له . كما لا يُثاب ولا يُعاقب على لونه وتركيب بدنه ، اذ لم يكن ذلك من كسبه . » (٣

على اني إخال البغدادي لم يتتبّع رأي الجـاحظ حتى منتهاه فيفهم ما يريـد «بالإرادة » وهي ، عنده ، نوع من المعرفة . فاذا عرف الفاعل عمله كان مريدًا له، ومن ثمَّ لم يبقَ فرق، من جهة التبعة ، بين العمل والإرادة . وهذا قول الجاحظ :

---

١) الشهرستاني : كتاب الملل والنحل – ليبسيك ١٩٢٣ – ص : ٥٢ – ٥٣

٢) البغدادي : الفَرق بين الفِرق – مصر – ص : ١٦٠ – ١٦٣

٣) البغدادي : الكتاب المذكور ، ص : ١٦٠ – ١٦١

٣ – اذا انتفى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق . واما الإرادة المتعلّقة بفعل الغير فهي ميل النفس اليه

٤ – الطبائع ثابتة للأجسام ولها افعال مخصوصة بها

يوافق الجاحظ هنا الطبيعيين من الفلاسفة ، ويجعل للأجسام ميولًا طبيعية ناتجة عن قوتها الداخلية

٥ – الجواهر وحدها خالدة لا يجوز ان تفنى . اما الاعراض فتتبدّل

وبهذا التبدّل الحادث في الأعراض يمكن الانسان ان يشرح تنقّلات الأجسام والأرواح بسبب ما في مادّة الجواهر الخالدة من القوّة الغريزية . ولهذا رأى المستشرق كارا دي ڤو أن من يعتقد بهذا المذهب ويتتبّع نتائجه ينتهي الى مذهب ليبنتز المعروف «بالوحدات» (Monadologie) . (١ اما السنيّون فيردّون على زعم الجاحظ هذا بأن رأيه يوجب القول بأن الله سبحانه يقدر على خلق شيء ولا يقدر على افنائه

٦ – اهل النار لا يخلدون في العذاب فيها ، بل يصيرون الى طبيعتها فهم خالدون فيها من جهة الإقامة ، غير خالدين من جهة العذاب

٧ – الله لا يُدخل احداً في النار ، بل ان النار تجذب اهلها

٨ – اما في ما يختصّ بالله وصفاته فان مذهب الجاحظ كمذهب الفلاسفة في نفي الصفات ، وفي اثبات القدر ، خيره وشرّه . وحكى الكعبي انه قال بوصف الباري تعالى بانه مُريد بمعنى انه لا يصحّ عليه السهو في افعاله (٢ ولا الجهل ، ولا يجوز ان يُغلب ويُقهر

٩ – الخلق كلهم من العقلاء عالمون بان الله خالقهم ، وعارفون بانهم

١) Bon Carra de Vaux : Avicenne, Paris, 1900. p. 32

٢) راجع ما يفهم الجاحظ بلفظة « مُريد » ، قبيل هذا ، في الآراء : ٢ ، ٣

محتاجون الى النبي ، وهم محجوجون بمعرفتهم . ثم هم صنفان : عالم بالتوحيد ، وجاهل به . فالجاهل معذور ، والعالم محجوج

ومن انتحل دين الإسلام ، فان اعتقد ان الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ، ولا يُرى بالابصار ، وهو عدل لا يجور ، ولا يريد المعاصي . وبعد الاعتقاد والتبيين اقرّ بذلك كلّه ، فهو مسلم حقاً . وان عرف ذلـك كله ثم جحده وانكره ، او دان بالتشبيه والجبر ، فهو مُشرك كافر حقاً . وان لم ينظر في شيء من ذلك ، واعتقد ان لله ربّه ، وان محمدًا رسول الله ، فهو من لا لوم عليه ، ولا تكليف عليه غير ذلك .

١٠ — خَلق القرآن

هي مسألة كلامية اشغلت علماء الإسلام مدة القرون الطوال ، واشتدّ الجدال فيها في هذا العصر خاصّة . فقـال المعتزلون ومن تبعهم ان القرآن مخلوق ، وخالفهم السنيّون في ذلك قائلين انـه موجود منذ البدء . الى ان صرّح الخليفة المأمون رسمياً ، سنة ٨١٧ ، بأن القرآن مخلوق . الّا ان فوز المعتزلة هذا لم يدم الّا ٢٤ سنة ، فقام المتوكل واضطهدهم وقرّر ان القرآن غير مخلوق ؛ وهو الرأي السنّي الشائع . اما الجاحظ فكان يقول بخلقه . وما كنا لنطيل الكلام في هذا الامر ، لولا ان كلام الجاحظ حُرّف على طريقة مضحكة . وتفصيل ذلك ان احدهم سأله : كيف خُلق القرآن ؟ فاجاب : خلق القرآن كما خُلق الرجل ، والمرأة ، والبقرة وكل حيوان ذكرًا كان او نثى . فحرّف بعض عداته هذا الجواب ، وقالوا ان الجاحظ يعتقد «ان القرآن جسد يجوز ان يقلب مرةً رجلًا ، ومرّةً حيواناً » (١ ومن الغريب ان هذا الزعم لا يزال في اكثر الكتب الكلامية ، حتى في تآليف المستشرقين

وعلى الجملة نرى ان الجاحظ كان يميل في فلسفته الى مذهب الفلاسفة

---

١) الشهرستاني : الملل والنحل : ص : ٥٣

الطبيعيين خاصة . على انه لم يكن يهتم كثيراً بالتبويب والتنسيق والاستنتاج ، بل كان يذكر آراءه عفواً في اثناء كتاباته مغشياً كل ذلك بستر شائق من الجملة الجذّابة ، والاسلوب المفكه . ولهذا كان نفوذه عظيماً في عصره ، وتأثيره بليغاً في مفكّري زمانه ، حتى خافه العلماء السنيون اكثر من خوفهم غيره من الفلاسفة ، واهتموا الاهتمام الشديد بمناوئته . ولم يكتفِ البعض بتزييف مبادئه على طريقة الكلاميين والفقهاء بل تجاوزوا الى هجوه ، وتعييره بأصله ، والزراية على كتبه . فقال البغدادي :

«واما كتبه المزخرفة فاصناف : منها كتاب في حيل اللصوص ، وقد علّم بها الفَسَقَة وجوهَ السرقة . ومنها كتاب في غشّ الصناعات وقد افسد به على التجار سلعهم . ومنها كتابه في النواميس وهو ذريعة للمحتالين يجتلبون بها ودائع الناس واموالهم ... ومنها كتاب في حيل المكدين ... ومعاني هذه الكتب لائقة به ، وبصفته ، وأسرته . ومنها كتاب طبائع الحيوان وقد سلخ فيه معاني كتاب الحيوان لارسطاطاليس ، وضمّ اليه ما ذكره المدائني من حكم العرب واشعارها في منافع الحيوان . ثم نه شحن الكتاب بمناظرة بين الكلب والديك ، والاشتغال بمثل هذه لمناظرة يضيع الوقت بالعبث . ومن افتخر بالجاحظ سلمنا اليه قول اهل سنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان الّا دون قُبح الجاحظِ
رجلٌ ينوب عن الجحيم بنفسه وهو القذى في كل طرفٍ لاحظِ» (١

فهذا الحقد ، والتحامل العاطفي ، والتحقير ، الظاهر في كل سطر بل

---

١) البغدادي : ك . م . ص : ١٦٢ — ١٦٣

في كل كلمة ، يدلّ على تأثير الجاحظ ومنزلته في قلوب اخصامه

ولابن قتيبة صفحة لعلّها ابلغ في تبيان هذا التأثير ، واصدق في تصوير عقلية الجاحظ في كتبه وانتقاله من موضع الى آخر دون رابطة ، مع استهزائه بالامور مهما كانت عظيمة معتبرة ، نوردها كقياس لقيمة الجاحظ في الابحاث الكلامية الاسلامية. قال ابن قتيبة :

الجاحظ احسن المتكلّمين « للحجة استثارة ، واشدّهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر . ويبلغ به الاقتدار الى ان يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتجّ بفضل السودان على البيضان. وتجده يحتجّ مرة للعثمانيّة على الرافضة ، ومرة للزيديّة على العثمانية واهل السنة ، ومرة يفضل علياً (رضه) ومرة يؤخّره. ويقول : «قال رسول الله (صلعم) . . . » ويُتبعه : «قال الجماز . . . » وقال اسماعيل ابن غزوان . . . » كذا وكذا من الفواحش. ويُجلّ رسول الله (صلعم) عن ان يذكر في كتاب ذُكرا فيه ، فكيف في ورقة او بعد سطر او سطرين. ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار الى الردّ عليهم تجوّز في الحجة كأنه انما اراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعَفة من المسلمين. وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشرّاب النبيذ . ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم : كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الاسود وانه كان ابيض فسوّده المشركون وقد كان يجب ان يبيّضه المسلمون حين أسلموا . ويذكر اشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد امه في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق

الحمامة ، واشباه هـذا . . . وهو مع هذا من اكذب الأمة واوضعهم لحديث ، وانصرهم لباطل . ومن علم ، رحمك الله ، ان كلامه من عمله ، أقلَّ الا فيما ينفعه ؛ ومن أيقن انه مسؤول عما ألّف وعما كتب لم يعمل الشيء وضدّه ، ولم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل عنده . وانشدني الرياشي

ولا تكتب بخطّك غير شيء   يسرّك في القيامة ان تراه . » (١

في الاجتماع والاخلاق

لم يدرس الجاحظ الفلسفة رغبـةً في المناقشات المنطقية العقيمة ، ولم يصطنع علم الكلام توصّلاً الى فرض النظريّات في منشأ العوالم ، وعلاقات الخلائق بالخالق . ولكنه كان فضولياً ، والفضولية في العلم شرط اساسي ، فأحبّ ان يطّلع على آراء المفكرين ، فاطّلع عليها وعرضها على ما نعرفه فيه من حبّ المحادثات الطويلة ، وخلط الجدّ بالهزل . فاتجهت افكاره الى درس المذاهب الدينية والفلسفية فدرسها ، وتوسّع فيها حتى انتج منها لنفسه مذهباً خاصاً كما رأينا .

وكان من حكم الطبع ان يتدرّج من ذاك المذهب النظري الى تطبيق آرائه على المجتمع ، واجلى مظهر فيه الامامة . فكان الجاحظ في هذا المبحث ايضاً هو في ابحاثه السابقـة . اي يدرس كل شيء ، ويفهم مزاعم الاحزاب المختلفة فيبسطها بكل صراحة ، منتصراً تارة للعثمانية مثلاً ، وطوراً لاعدائهم ، حيناً يقرّ امامة بني امية وحيناً يفضّل عليهم بني العباس . كذلك كان موقفـه في المناظرات بين النصارى ، والمسلمين واليهود كما اوردناه قبيـل هذا . وهو في كل

---

١) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، ص : ٧١ — ٧٢

ذلك لا يظهر اعتقاده الخاصّ بل يكتب « تماجناً وتطرّباً » (١

على انه كان يرى في تلك المدنية الزاهرة فضلًا لغير العرب ايضاً ، ولم يكن ليبخس الموالي حقّهم ، ولهذا انتقده البغدادي (٢ . وكان للجاحظ الفضل السابق في قدر الاتراك حقّ قدرهم في العصر العبّاسي الاول . وما رسالته في فضائل الترك الّا استحساناً لفكرة ادخالهم في الامامة الإسلامية ، ونبوءة تحققت عن مصير ذاك العنصر المهم في العصور التالية

هذا ما يخصّ الشعوب . اما اخلاق الافراد فدرسها الجاحظ درساً دقيقاً . وكان له من فكاهته معاون على تصويرها فصوّرها بنقائصها ، وتهكّم فابدع في ذلك . ولعلّه كان اوّل كاتب عربي انتقد طبقات المجتمع ، والجماعات من الناس ، فادخل في آدابنا ذاك الفنّ الشائق بعرارته ولذعه ، المفيد بما يدفع اليه من الإصلاح ، المعروف بدرس الاخلاق . فاظهر حيل التجار في « غش الصناعات » ، وخزعبلات المتسوّلين في « حيل المكدين » ، وسخافات الشبان المتخنثين ، واخلاق المغنّين والعبيد والموالي من ذكور واناث ، في كتب « الفتيان » ، و « الجواري والغلمان » ، و « المغنّين » ، و « القيان » . ولم تفته اخلاق النساء وحيلهنّ فخصّ بهنّ كتاباً . على ان افضل روائعه في هذا النوع ، « كتاب البخلاء » الذي خلّد صغارة تلك الفئة من اهل البصرة ، مدى الاجيال ؛ وما ارشق قلم الجاحظ في تمزيق الستار عن تكالب اولئك « المقتصدين »

الى هنا ننتهي في بحثنا الآن . وسنأتي ، في مقدمة الجزء القادم ، على آراء الجاحظ في مختلف العلوم . ونتكلم عن قيمته كاتباً واديباً

---

١) المسعودي : مروج الذهب ، الجزء ٦ ، ص : ٥٦

٢) البغدادي : الفرق بين الفِرق ؛ ص : ١٦٢

كتاب الحيوان



٢

الحَيّات



الحيّات

مقدّمة

اللهم جنّبنا التكلّف، وأعذنا من الخَطَل، وأحمِنا من العُجب بما يكون منا، والثقة بما عندنا، واجعلنا من المحسنين

انتصاب الحيّة

حدثنا ابو جعفر المكفوف النحوي العنبري، واخوه روح الكاتب، ورجال من بني العنبر أنَّ عندهم، في رمال بَلْعَنْبر(١)، حيّة تصيد العصافير، وصغار الطير، بأعجب صيد. زعموا أنّها اذا انتصف النهار، واشتدّ الحرّ في رمال بَلْعَنْبر، وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل، ورمض(٢) الجندب، غمست هذه الحيّة ذنبها في الرمل، ثم انتصبت كأنها رمحٌ مركوز، او عود ثابت. فيجيءُ الطير الصغير او الجرادة، فاذا رأى عودًا قائمًا، وكره الوقوع على الرمل لشدّة حرّه، وقع على رأس الحيّة على أنها عود، فاذا وقع على رأسها قبضت عليه. فان كان جرادة او جُعلًا، او بعض مـا لا يشبعها مثله، ابتلعته وبقيت على انتصابها. وان كان الواقع على رأسها طائرًا يشبعها مثله، أكلته وانصرفت. وإنَّ ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه في الصيف

---

١) بَلْعَنْبر: اي بني العنبر.

٢) رمض: اشتدَّ عليه الحرّ والعطش.

والقيظ ، في انتصاف النهار والهاجرة . وذلك ان الطائر لا يشكّ أن الحيّة عود ، وانه سيقوم له مقام الجذل للحرباء الى ان يسكن الحرّ ، ووَهج الرمل . وفي هذا الحديث من العجب ان تكون هذه الحيّة تهتدي لمثل هذه الحيلة . وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود . وفيه قلّة اكتراث الحيّة للرمل الذي عاد كالجمر ، وصلُح ان يكون ملّة وموضعاً للخبزة . ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحيّة ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة . فهذه اعجوبة من اعاجيب ما في الحيّات

الحيّة والبقرة

وزعم لي رجل من الصقالبة ان الحيّة في بلادهم تأتي البقر، فتنطوي على فَخذي البقرة وركبتيها الى عراقيبها . ثم تشخص صدرها نحو اخلاف ضرعها ، حتى تلتقم الخِلف (١) ، فلا تستطيع البقرة ان تَتَزَمْزَم (٢) . فلا تزال تمصّ اللبن ، وكلّما مضت استرخت ، فـاذا كادت تتلف أرسلتها . وزعموا ان تلك البقرة إما ان تموت ، وإما ان يصيبها في ضرعها فساد شديد تعسر مداواته

الحيّة واللبن والفواكه

والحية تعجب باللبن . واذا وجدت الافاعي الإناء غير مخمّر (٣) كرعت فيه . وربما مجّت فيه ما صار في جوفها ، فيصيب شارب ذلك اللبن اذى ومكروه كثير

---

١) الخِلف : حلمة ضرع الناقة او البقرة ، ضرع الناقة .

٢) تَزَمْزَم : في الاصل ، حرّك فاه للكلام ولم يتكلّم ، لم يتحرّك .

٣) غير مخمّر : اي لم يوضع عليه خِمار : ستر من قماش

والحيّة تعجب باللفّاح (١ ، والبطيخ ، وبالحرف (٢ ، والخردل . وتكره ريح السّذاب (٣ والشيح ، كما تكره الوَزَع (٤ ريح الزعفران

قوّة الحيَّة

وليس في الارض شيء جسمه مثل جسم الحيَّة الا والحيّة أقوى بدناً منه أضعافاً . ومن قوَّتها انها اذا ادخلت رأسها في حجرها او في صدع ، الى صدرها ، لم يستطع اقوى الناس ، وهو قابض على ذنبها بكلتي يديه ، أن يخرجها ، لشدة اعتمادها ، وتعاون اجزائها . وليست بذي قوائم لها اظفار ، او مخالب لها اظلاف ، تنشبها في الارض تتشبّث بها وتعتمد عليها . وربما انقطعت في يد الجاذب لها من أنها لدنة ، ملساء ، علكة . فيحتاج الرفيق في امرها ، عند ذلك ، أن يُرسلها من يديه بعض الإرسال ، ثم ينشطها كالمختطف والمختلس . وربما انقطع ذنبها في يد الجاذب لها

بعض مميّزاتها

فاما اذناب الأفاعي فانها تنبت . ومن عجيب ما فيها من هذا الباب أن نابها يُقطع فينبت حتى يتمّ نباته في اقلّ من ثلاث ليال !

والخطّاف في هذا الباب خلاف الخنزير . لان الخطّاف ، اذا قلعت احدى عينيه رجعت . وعين البِرذَون يركبها البياض فيذهب في ايام يسيرة . وناب الافعى يُحتال له بأن يُدخل في فيها حماض أترج ويطبق لحييها

---

١) اللُفّاح : نبات يشبه الباذنجان ، اذا اصفرّ .

٢) الحُرف : حبّ الرشاد. ٣) السَذّاب : نبات متقابل الورق ، هيئته كالصعتر ، مجتمع الزهر اصفره ، رائحته مكروهة .

٤) الوَزَغ : ج. وزغة : ضرب من الزحافات الصغار كسامّ أبرص

الأعلى على الاسفل ، فلا تقتل بعضتها أياماً صالحة. والمغناطيس الجاذب الحديد اذا حكّ عليه الثوم لم يجذب الحديد . والافعى لا تدور عينها في رأسها . وهي تلد وتبيض ؛ وذلك انها اذا طرقت بيضها تحطّم في جوفها ، فترمي بفراخها اولاداً حتى كانها من الحيوان الذي يلد حيواناً مثله

وفي الافاعي من العجب أنها تذبح حتى يفرى منها كل ودج؛ فتبقى كذلك اياماً لا تموت. فأمرتُ الحاوي فقبض على خرزة عنقها . فقلت له : اقبضها من الخرزة التي تليها قبضاً رفيقاً . فما فتح بينها بقدر سمّ الإبرة حتى بردت ميتة. وزعم انه قد ذبح غيرها من الحيّات فعاشت على شبه بذلك. ثم انه فصل تلك الخرزة على مثال ما صنع بالافعى، فماتت بأسرع من الطرف

قوّة كل شيء ممسوخ

وكل شيء ممسوخ البدن ليس بذي ايدٍ ولا ارجل،فإنه يكون شديد البدن كالسمك والحية

كيفية ذبحها

وزعم احمد بن غالب قال : باعني حوّاء (١) ثلاثين افعى بدينارين ، واهدى اليّ خمساً اصطادها من قبالة القلب،في تلك الصحاري، على شاطئ دجلة. قال : واردتها للترياق . فقال لي، حين جاءني بها : « قل لي من يعالجها ؟ » فقلت : « فُلان الصيدلاني» فقال: « ليس عن هذا سألتك. قل لي من يذبحها ويسلخها ؟ » (قال) : قلت: « هذا الصيدلاني بعينه ! » قال: «اخاف ان يكون مغروراً من نفسه. إنه ، والله ، إن أخطأ موضع المفصل

---

١) الحوّاء : يريد به الجاحظ الحاوي، اي صاحب الافعى يحملها للعرض والتفرجة

من قفاها ، وحركته أسرع من البرق ؛ فإن كان لا يُحسن ولا يدري كيف يتغفّله ، فينقره نقرةً لم يُفلح بعدها أبدًا . ولكني سأتطوّع لك بأن أعمل ذلك بين يديه . (قال) : فبعثت اليه ، فكان يقبض على قفاها بأسرع من الطرف ، ثم يذبحها . فاذا ذبحها سال من أفواهها لُعاب ابيض . فيقول : « هذا هو السُمّ الذي يقتل . » (قال) فجالت يده جولة ، وقطرت من ذلك اللعاب قطرة على طرف قميص الصيدلاني . (قال) فتفشّى ذلك القاطر حتى صار في قدر الدرهم العظيم . ثم ان الحوّاء امتحن ذلك الموضع ، فتهافت (١ في يده وبقيت الافاعي مذبوحة في الطست يكدم بعضها بعضاً حتى أمسينا . (قال) : وبكرت على ابي رجاء ، الى باب الجسر ، احدّثه بالحديث . فقال لي : « وددت اني رأيت موضع القطرة في قميص الصيدلاني . » (قال) : «فوالله ما رُمت حتى مرَّ معي الصيدلاني فأريته موضعه . »

واصحابنا يزعمون ان لعاب الافاعي لا يعمل في الدم ، إلا ان احمد ابن المثنى زعم ان من الافاعي جنساً لا يضرّ الفراريج من بين الأشياء . ولا ادري ايّ الخبرين أبعد . أخَبَر ابن غالب في تفسيخ الثوب ، او خبر ابن المثنّى في سلامة الفرّوج على الافعى .

حديث عيني الافعى

وزعم محمد بن الجهم ان العيون التي تضيءُ بالليل كأنها مصابيح ، عيونُ الأسد ، والنمور ، والسنانير ، والافاعي . فبينا نحن عنده اذ دخل عليه بعض من يجلب الافاعي من سجستان ، ويعمل الترياقات ، ويبيعها

١) تهافت : اي تقطّع وسقط

احياء ومعمولة ، فقال له : « حدّثهم بالذي حدَّثتَني به من عين الافعى ! »
قال :

نعم ! كنت في منزلي نائماً في ظلمةٍ ، وقد كنت جمعت رؤوس افاعي كنَّ عندي لارمي بها . واغفلت تحت السرير رأساً واحداً . ففتحت عيني تجاه السرير الذي في الظلمة ، فرأيت ضياء ، الا انه ضئيل ، ضعيف ، دقيق . فقلت : « عين غول ! او بعض اولات السعالي . وذهبت نفسي في الوان من المعاني ؛ فقمت فقدحت نارًا ، واخذت المصباح معي ، ومضيت نحو السرير . فلم اجد تحته الا رأس افعى . فأطفأت السراج وغت ؛ وفتحت عيني فاذا ذلك الضوء على حاله . فنهضت فصنعت كصنيعي الأَول ، حتى فعلت ذلك مرارًا . (قال) فقلت لآخر مرة : لا ارى شيئاً الا رأس افعى ، فلو نحّيته ! فنحّيته ، واطفأت السراج ، ثم رجعت الى منامي . ففتحت عيني فلم أرَ الضوء ، فعلمت انهُ من عين الافعى . ثم سألت عن ذلك ، فاذا الامر حقّ ، واذا هو مشهور في اهل هذه الصناعة

قوّة بدنها

(قال) وربما قبض الرجل الشديد الأسر والقوّة القَبضةَ على قَفا الحيّة ، فتلتفّ عليه فتصرعه . وليست بذات قوائم . وانما تنساب على بطنها . وفي تدافع اجزائها ، وتعاونها في حركتها ، وفي صعودها ، وفي سعيها خلفَ الرجل الشديد الحضر ، او عند هربها حتى تفوت وتسبق الكلّ من ذات نفسها ، دليلٌ على افراط قوّة بدنها

ومن ذلك انها لا تمضغ ، وانما تبتلع فربما كان في البضعة ، او في الشيء الذي ابتلعته عظم ، فتأتي جذم شجرة او حجرًا شاخصاً ، فتنطوي

عليه انطواء شديدًا · فيتحطّم ذلك العظم حتى يصير رُفاتاً · ثم يُقطع ذنبها فينبت ·ثم تعيش في الماء ، ان صارت في الماء بعد ان كانت برّيّة · وتعيش في البرّ بعد ان طال مكثها في الماء وصارت مائيّة

(قال) وانما اتتها هذه القوّة ،واشتدّت فِقَر (١ ظهرها هذه الشدّة ، لكثرة اضلاعها ؛ وذلك ان لها من الأضلاع عدد ايام الشهر

طول عمرها

وهي مع ذلك أطول الحيوان عمرًا ويزعمون أن الحيّة لا تموت حتف أنفها ، وانما تموت بعَرَض يعرض لها · ومع ذلك فانه ليس في الحيوان شيء هو اصبر على جوع من حيّة ·لأنها ، إن كانت شابة فدخلت في حائط او صخر ، فتتبّعوا موضع مدخلها بوتد او بحجر ، ثم هدموا هذا الحائط ، وجدوها هناك منطوية ،وهي حيّة · فان هرمت ، صغرت في بدنها ، واقنعها النسيم ولم تشتهِ الطعم ·وقد قال الشاعر ، وهو جاهلي :

فبعثْ له من بعض اعراض اللممْ لميمةٌ من حَنَشٍ أعمى ، أصمْ ·
قد عاش حتى هو لا يمشي بدمْ فكلما اقصد منه الجوعُ ، شَمْ !

صبرها على الجوع

ومن اعاجيبها انها ، وان كانت موصوفة بالشره ، والنهم وسرعة الابتلاع ، فلها في الصبر ، في ايام الشتاء ، ما ليس بالزهيد · ثم هي بعد يصير بها الحال الى ان تستغني عن الطعم

١) فِقَر : ج· فِقرة : الخرزة من خرزات الظهر ·

الحية والنمس

ثم قد يزعمون ان بمصر دويبة يُقال لها النمس يتخذها الناطور، اذا اشتدَّ خوفه من الثعابين . لان هذه الدابة تنقبض، وتنضمّ ، وتستدق حتى كانها قطعة حبل . فاذا عضّها الثعبان، وانطوى عليها، زفرت، واخذت بنفسها، وزخرت جوفها، فانتفخ . فتفعل ذلك، وقد انطوى عليها، فتقطعه قِطَعاً من شدّة الزخرة . وهذا من اعجب الاحاديث

الحية والفزع

والثعابين احدى القواتل ١ . ويزعمون أنها ثلاثة اجناس، لا ينجع فيها رقية ولا حيلة: كالثعبان، والافعى، والهندية . ويُقال ان ما سواها فانما تقتل مع ما عدّها من الفزع . وقد يقتل الفزع وحده . فكيف اذا قارنه سُمّها ! إن لم يقتُل أمرَض

ويزعمون أن رجلًا قال (٢ تحت شجرة، فتدلّت عليه حية منها، فعضّت رأسه . فانتبه محمرّ الوجه، فحكّ رأسه والتفت، فلم يرَ شيئاً، ووضع رأسه ينام . واقام مدةً طويلة لا يرى بأساً . فقال له بعض من كان رأى حاله، ثم تقلّصها عنه، وهربها منه : « هل علمت من ايّ شيء كان انتباهك تحت الشجرة ؟ » قال : « لا، والله، ما علمت ! » قال : بلى ! فان الحيّة الفلانية نزلت عليك حتى عضت رأسك، فلما جلستَ،

---

١) اي من التي تقتل نفسها .

٢) قال : يقيل : نام وقت القائلة اي نصف النهار .

تقلّصتْ عنــك ، وتراجعت . » ففزع فزعة ، وصرخ صرخة كانت فيها نفسه . وكأنهم توهموا انه لما فزع واضطرب ، وقد كان ذلك السُمّ مغموراً ممنوعاً ، فزال مانعه ؛ واوغله ذلك الفزع حتى تفتّحت منافسه الى موضع الصميم ، والدماغ ، وعمق البدن ، فانحلّ موضع العقد الذي انعقدت عليه اجزاؤه واخلاطه

(قال) فالفزع إما ان يكون يوصل السُمّ الى المقاتل ، وإما ان يكون معيناً له كتعاون الرجلَين على نوع . وتراهم لا يجزمون على ان الحيّة من القواتل البتّة ، الّا ان تقتل اذا عضّت النائم والمغشي عليه ، والطفل الغرير ، والمجنون الذي لا يعقل [١] . وحتى تحرّب عليه الادوية

كيفية عمل سمّ الأفعى

وكنت يوماً عند ابي عبد الله احمد بن ابي دوّاد . وكان عنده سلمويه ، وابن ماسويه ، وبختيشوع بن جبريل [٢] ، فقال : « هل ينفع الترياق من نهشة افعى ؟ » فقال بعضهم : « اذا عضّت الافعى ، فأدركت قبل ان تنقلب ، نفع الترياق . وان لم تُدرَك ، لم ينفع . لانهم ان قلّلوا من الترياق قتله السمّ ، وان كثّروا منه ، قتله الفاضل عن مقدار الحاجة . » قلت : « وأن ابن المجوز خبرني بانها ليست تنقلب لمجّ السّم وافراغه ، ولكن الافعى في نابها عَصَل [٣] . واذا عضّت استفرغت ادخال الناب كلّه ، وهو احجن [٤] اعطل فيه مشابه من النقص ، فاذا انقلبت كان اسهــل لنزعه

---

١) لان النائم ، والمغشي عليه ، والطفل ، والمجنون ، لا يعقلون فلا يفعل فيهم الفزع .

٢) هؤلاء من مشاهير الاطباء في العصر العباسي الاول والثاني .

٣) العَصَل : الالتواء ، والعوَج .

٤) احجن : اي أعوج .

وسلّه . فأمّا لصبّ السُم ّوافراغه فلا .» قال : «والله لعلّه ما قلتَ ! ما أسرع ما شككت ! » ثم قلت له : « فانما وضعوا الترياق ، واجتلبوا الأفاعي ، وضنّوا وعزموا على انه لا ينفع الّا بدرك الافعى قبل ان تنقلب . وكيف صار الترياق بعد الانقلاب ؟ لا يكون الّا في احدى منزلتين : اما ان يقتل بكثرته ، و إمـا ان لا ينفع بقلّته . فكان الترياق ليس نفعه الّا المنزلة الوسطى التي لا تكون فاضلة ولا ناقصة . ولكني اقول لك : كيف يكون نفعه اذا كان الترياق جيدًا قويًا ، وعوجل فسقي المقدار الأوسط قبل ان يبلـغ الصميم ويغوص في العميق ؟ وهم كانوا احزم واحذق من ان يتكلفوا شيئاً ، ومقداره من النفع لا يوصل الى معرفته . ويقول بعض الحذّاق : ان سقي الترياق بعد النهش بساعة او ساعتين مات المنهوش . ثم قلت له : وما علمك ؟ وبايّ سبب علمت انها تمجّ من جوف نابها شيئاً ؟ ولعلّه ليس هناك الا مخالطة جوهر ذلك الناب لدم الانسان ! او لسنا قد نجد مِن الانسان مَن يعضّ صاحبه فيقتله ؟ ويكون معروفاً بذلك . وقد تقرّون ان الهندية والثعبان يقتلان إما لمخالطة الريق الدم ، و إما لمخالطة السنّ الدم ، من غير ان تدّعوا ان اسنانها مجوّفة .

وقد اجمع جميع اصحاب التجارب ان الحية تُضرب بقصبة فتكون اشدّ عليها من العصا . وقـد يُضرب الرجل على جسده بقضبان اللوز ، وقضبان الرمّان ؛ وقضبان اللوز اعلك والدن ، ولكنها اسمّ ؛ وقضبان الرمّان اخفّ واسخف ، ولكنها اعطب وقد يطأ الإنسان على عظم حيّة او إبرة عقرب ، وهما ليّنان ، فيلقى الجهد . وقد يُخرَج السكّين من الكير وهو محمي ، فيُغمس في اللبن ، فمتى خالط الدم قام مقام السمّ . من غير ان

يكون مجّ في الدم رطوبة غليظة او رقيقة. وبعض الحجارة يكوى بها رخو الأورام(١ حتى يغرقها او يمحصها، من غير ان يكون نفذ اليها شيء منه. وليس الّا الملاقاة

فان قلتَ : ولعلّ قوّى قد انفصلت من انيـاب الافاعي الى دماء الناس . وقد رووا أنه قيل لجالينوس إن هاهنا رجلًا يرقي العقارب فتموت او تتخدّر فلا تعمل . فرآه يرقيها ويتفل عليها . فدعا به بحضرة جماعة ، وهو على الريق ، ودعا بغدائه فتغدى معه . ثم دعا له بالعقارب ، فتفل عليهـا ، فلم يجد لعابه (٢ يصنع شيئا الّا ان يكون ريقاً . وهو حديث يدور بين اهل الطب ، وانت طبيب ! »

فلم أرَه ، في يومه ذلك ، قال شيئاً الا من طريق الحزر ، والحدس ، والبلاغات

وسموم الحيات ذوات الانياب ، والعقارب ذوات الإبر ، انما تعمل في الدم بالإجماد والإذابة . وكذا سموم ذوات الشعر والقرون ؟ والجُمّ(٣ انما تعمل في العصب ، ومنها ما يعمل في الدم .

عضّة افعى

وحدثني بعض اصحابنا قال: كنت اما برَما ، واما بباري(٤ ، وهما

١) الاورام : ج. وَرَم : نتوّ العضو وانتفاخه لآفة .

٢) كان من المقرّر عند العرب ان ريق الجائع العطشان يقتل العقارب. وقـد ذكر ذلك جابر بن حيّان في كتبه .

٣) الجمّ : ج. أجمّ : ما لا قرن له من الحيوان .

٤) رَمَا : موضع في ارض بني عامر. باري: قرية في نواحي بغداد

بلاد حيات وافاعي ، ونحن في عرس اذ ادخلوا الخدر العروس . فابطأوا عليه شيئاً ، فاغفى . وتلوّت على ذراعه افعى ، فذهب ينفضها ، وحجمت على ذراعه (وقد يُقال ذلك ، اذا كانت العضّة في صورة شرط الحجام) فصرخ . وحاولوا يتعادون ، فوجدوها فقتلوها ، وسقوه في تلك الليلة لبن اربعين عنزاً ، كلما استقرّ في جوفه قعب من ذلك اللبن ، قاء ، فيخرج منه كامثال الفحال الأبيض فيه طرائق من دسم تتلوه خضرة . حتى استوفى ذلك اللبن كله . (قال) : فعندها قال شيخ من أهل القرية : ان كنتم اخرجتم ذلك السمّ ، فقد اخرجتم نفسه معه . (قال) : فغبر أياماً بأسوأ حال ، ثم مات . قال : وكنت اعجب من استحالة اللبن وجوده

الحيّات المائية

قلت : والحيّات البرّية اذا هرمت تنسّمت النسيم فاكتفت به . وكذلك الضباب اذا هرمت . ولا يكون ذلك للمائية من حيّات الغياض وشطوط الانهار

قال : والحيّات المائية إما ان تكون برّية او جبلية فاكتسحتها السيول ، وحملتها في كثير من اصناف الحشرات والدوابّ والسباع ، فتوالدت تلك الحيات وتلاقحت هناك . واما ان تكون كانت امهاتها وآباؤها من حيات الماء . وكيف دارت الامور، فإن الحيات ، في اصل الطبع ، مائية . وهي تعيش في الندى ، وفي الماء ، وفي البرّ ، وفي البحر ، وفي الصخر والرمل . ومن طباعها ان ترقّ وتلطف على شكلين : احدهما لطول العمر ، والآخر للبعد عن الريف . وعلى حسب ذلك تعظم في المياه، والغياض

قال : وكل شيء في الماء مما يعايش السمك مما اشبه الحيات كالمارماهي (١ والانكليس، فانها كلها على ضربين : فاحدهما من اولاد الحيات انقلبت بما عرض لها من طباع البلد والماء . والآخر من نسل سمك وحيات . وتلاقحت اذ كان السمك قريباً من طباع تلك الحيات . والحيات في الاصل مائية . وكلها كانت حيات

بعض مزاعم — الذئب ، والاسد ، الظليم

ويزعمون ان الفيلة مائية الطباع بالجاموسية والخنزيرية التي فيها . (قال) والذئب ايضاً ، وان كان عنده الهرم منها لا يجتزئ بالنسيم ، فانه من الحيوان الذي يفتح فاه للنسيم ، ليبرد جوفه من اللهيب الذي يعتري السباع . ولأن ذلك يعد قوته، ويقطع عنه ببرودته ولطافته الريق . فإن كان ذا سعر احتشى ريحاً

وربما جاع الأسد ففعل فعل الذئب . فالأسد والذئب يختلفان في الجوع والصبر . لان الأسد شديد النهم ، رغيب ، حريص ، شره ؛ وهو ، مع ذلك ، يحتمل ان يبقى اياماً لا يأكل شيئاً . والذئب ، وان كان اقفر منزلاً ، واقلّ خصباً ، واكثر كدّاً وإخفاقاً ، فلا بدّ له من شيء يلقيه في جوفه . فاذا لم يجد شيئاً استعار النسيم

والناس اذا جاعوا ؛ واشتدّ جوعهم ، شدّوا على بطونهم العمائم . . .

والظليم (٢ يكون على بيضه ، فيشمّ ريح القانص من اكثر من

---

١) المارماهي : ويقال له ايضاً الجرّيث : نوع من السمك من فئة لانكليس .

٢) الظليم : ذكر النعام .

غلوة ؛ ويبعد عن رئاله (١ ، فيشمّ ريحها من مكان بعيد . وانشدني يحيي بن لحيم بن زمعة قال :

اشمّ من هيقٍ ، واهدى من جَمَل ! (٢

وانشدني عمرو بن كركرة :

ما زال يشمّ اشتمام الهيقِ !

العود الى الحيات — بعض الاقوال في البلدان المختلفة

كل حية خفيفة الجسم فهي شيطان . والثقال لا تنشط من ارض الى ارض ، وتثقل عن ما تبلغه المستطيلات الخفاف . والحباب الحيّة الذكر

وكما يقولون : ذئب الخمر ، يقولون : أرنب الخلّة ، وتيس الرمل ، وضبّ السحا . والسحا بقلة تحسن حاله من أكلها . وكذلك يقولون : قنفذ برقة ، لانه يكون أخبث له . وذلك كله على قدر طبائع البلدان ، والاغذية العاملة في طبائع الحيوان

الا ترى انهم يزعمون ان من دخل ارض تبت لم يزل ضاحكاً مسروراً من غير عجب حتى يخرج منها . ومن اقام بالموصل حولًا ، ثم تفقّد قوّته وجد فيها فضلًا . ومن اقام بالأهواز حولًا ، فتفقّد قوّته ذو فراسة ، وجد النقصان فيه بيّناً . كما يُقال في حُمّى خيبر ، وطحال البحرين ، ودماميل الجزيرة . وقال الشاعر :

كأن حمّى خيبرٍ غلّه !

---

١) الرئال : ج . رأل : فرخ النعام .

٢) الهيق : هو الظليم : اي ذكر النعام

وكذلك القول في وادي جحفة ، وفي مهيعة ، وفي اصول النخل حيث كان . وقال عبدالله بن همام السلولي في دماميل الجزيرة :

تراه ، اذا يمضي يحكّ ، كأنما   به ، من دماميل الجزيرة ، ناخسُ!

فحدثني ابو زمز الضاري قال : « مات ضرار بن عمرو ، وهو ابن تسعين سنة ، بالدماميل . » قلت : « والله ان هذا لعجب ! » قال : « كلا ! انما احتملها من الجزيرة . »

طاعون الشام

وكذلك القول في طواعين (١ الشام . قال احد بني المغيرة فيمن مات منهم بطواعين الشام ، ومن مات منهم بطعن الرماح ، ايام تلك المغازي :

من يترلِ الشام ، ويُعرسْ ، ، فالشام ، إن لم يُفنه ، كاذبُ ! (٢
افنى بني ريطة فرسانَهم : عشرين لم يُقصَصْ لهم شاربُ
ومن بني اعمامهم مثلهم . لمثل هذا عجبَ العاجبُ :
طعنٌ وطاعون منايـاهم : ذلك ما خطّ لنا الكاتبُ !

قال ولما قدم عبد الله بن الحسين بن الحسن ، رضي الله عنهم ، على عمر بن عبد العزيز (رضه) في حوائج له . فلما رأى مكانه بالشام ، وعرف سنّه ، وسمته ، وعقله ولسانه ، وصلاته وصيامه ، فلم يكن شيء احبَّ اليه من ان لا يراه احد من اهل الشام ، فقال له : « اني اخاف عليك طواعين الشام . فانك لن تغنم اهلك اكثر منك . فالحق بهم ، فان حوائجك ستسبقك اليهم . »

---

١) طواعين : ج . طاعون : وباء دمّلي ، سريع العدوى ، يعقب الموت غالبًا
٢) يُعرس : ينزل ، يُقيم .

ثم قدم على هشام ، فكره عبد الله ان يدخل منزله حتى يأتيه في ثياب سفره ، مخافة شرطته . فلما اعلمه الحاجب مكانه ، ودخل عليه ، وعاينه ، كره ان يقيم بها طرفة عين ، وقال : « اذكر حوائجك ! » قال : « احطّ رحلي ، واضع ثياب سفري ، واتذكر حوائجي . » قال : « انك لن تجدني في حال ، خيراً لك مني الساعة . » يريد ان القلوب ارقّ ما تكون اذا تلاقت العيون عن بعد عهد . وليس ذلك اراد .

العود الى ميزات مختلف البلدان

والعامة تُنشد :

ومن يسكنِ البحرين يعظمْ طحالُه ، ويُغبَطْ بما في بطنه وهو جائع !

وحدثني يوسف الزنجي انه لا بدّ لكل من قدم من شقّ العراق الى بلاد الزنج ان لا يزال جَرِباً ، ما اقام بها . وان اكثر من شرب نبيذها او شراب النارجيل ، طمس الخُمار على عقله ، حتى لا يكون بينه وبين المعتوه الا الشيء اليسير .

وخبّرني كم شئت من الغزاة أن من اطال الصوم بالمصيصة ، في ايام الصيف ، هاج به المرار . وان كثيراً منهم قد جنوا من ذلك الاحتراق

تأثير بلاد الأهواز

فاما قصبة الأهواز فانها قلبت كلّ من نزلها من بني هاشم الى كثير من طباعهم وشمائلهم . ولا بدّ الهاشمي ، قبيحَ الوجه كان او حسناً ، دميماً كان او بارعاً رائعاً ، من ان يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش ، وجميع العرب . فلقد كادت البلدة ان تنقل ذلك فتبدله ،

ولقد تخفيه ؛ وادخلت الضيم عليه ، وبينت اثرها فيه . فما ظنك بصنيعها في سائر الاجناس

ولفساد عقولهم ، ولؤم طبع بلادهم ، لا تراهم ، مع تلك الأموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يحبون من البنين والبنات مـا يحبه اوساط اهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، وان طال ذلك ؛ والمال منبهة كما تعلمون . وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل (١ اليسير ، فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدّبين ، ولا يرضى للسانه بمثل الذي كان يرضاه قبل ذلك

وليس في الارض صناعة مذكورة ، ولا ادب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم في شيء منه نصيب ، وان حسن . ولم أرَ بها وجنةً حمراء لصبي ولا صبية ، ولا دماً ظاهراً ، ولا قريباً من ذلك . وهي قتّالة للغرباء . على ان حُمّاها خاصة ليست للغريب باسرع منها الى القريب . ووباها وحُمّاها في وقت انكشاف الوباء ، ونزوع الحُمّى عن جميع البلدان . وكل محموم في الأرض فان حُمّاه لا تنزع عنه ، ولا تفارقه ، وفي بدنه منها بقية ؛ فاذا نزعت عنه ، فقد اخذ منها على نفسه البراءة ، الى ان يعود الى الخَلْط (٢ وأن يجمع في جوفه الفساد . وليست كذلك الأهواز ، لانها تعـاود من نزعت عنه من غير حدث ، كما تعاود اصحاب الحـدث . لأنهم ليسوا يُؤتَون من قبل النهم ومن قبل الخلط والاكثار ؛ وانما يؤتون من عين البلدة

١) المويل : تصغير المال .

٢) الخَلط : الجمع بين اشياء متباينة ، وهنا بمعنى التخليط : وهو تناول المريض ما يضرّه من الاطعمة المختلفة .

وكذلك جمعت سوق الأهواز الافاعي في جبلها ، الطاعن في منازلها ، المطلّ عليها ؛ والجرّارات(١ في بيوتها ومقابرها ومنابرها ولو كان في العالم شيء هو شرٌّ من الافعي والجرّارة لما قصرت قصبة الأهواز عن توليده وتلقيحه. انها من ورائها سِباخ (٢ ومناقع مياه غليظة ؛ وفيها انهار تسقيها مسائل كُنُفهم ، ومياه امطـارهم ، ومتوضّئهم . واذا طلعت الشمس ؛ وطال مقامها ، وطالت مقابلتها لذلك الجبل ، قِبَل الصخرة التي فيها تلك الجرّارات ؛ فاذا امتلأت يبساً وحرارة ، وعادت جمرة واحدة ، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم . وقد تحدث السباخ وتلك الانهار بخارًا فاسدًا . فاذا التقى عليهم ما تُحدث تلك السباخ وما قذفه ذلك الجبـل فسد الهواء ؛ وبفساد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء

وحدثني ابراهيم بن عباس بن محمد بن منصور عن شيخه من أهـل الأهواز ، عن القوابل انهنّ ربما قبلنَ الطفل المولود فيجدنه في تلك الساعة محموماً ؛ يعرفنَ ذلك ، ويتحدّثنَ به

العود الى الحيات واشباهها

ويعرض لفراخ الحيّات مثل الذي يعرض لفراخ الخطـاطيف . فان نازعاً لو نزع عيون فراخ الخطاطيف وفراخ الحيات لعادت بصيرة

وزعم ان السلحفاة والرقّ (٣ والضفدع مما لا بدّ له من التنفّس ، لا بدَّ لها من مفارقة الماء . وأنها تبيض ، وتكتسب الطعم ، وهي خرّاجة من

١) الجرّارات : ج . جرّارة : ضرب من صغار العقارب .
٢) سِباخ : ج . سَبخة : ارض ذات نزّ وملح .
٣) الرقّ : السلحفاة الضخمة

الماء . وذلك للنسب بينها وبين الضبّ ، وإن كان هذا برّيًا وهذا بحريًّا . ويزعمون ان ما كان في البرّ من الضبّ ، والورل ، والحرباء ، والحُلَكَى(١) ، وشحمة الارض(٢) ، والوزغ ، والعظاء ، مثل الذي في البحر من السلحفاة ، والرقّ ، والتمساح ، والضفدع . وان تلك الاجناس البرّية ، وإن اختلفت في امورها ، فانها قد تتشابه في امور . وان هذه الاجناس البحرية من تلك ، ككلب الماء من كلب الارض . وقد زعم صاحب المنطق ان تلك الحيّة من سام أبرص من العظاء والتمساح تسكن في أعشّتها اربعة أشهر شديدة البرد ، لا تُطعم شيئًا ؛ وان سائر الحيّات تسكن بطن الأرض . فاما الافاعي فانها تسكن في صدوع الصخور . وليس لشيء من الحيوان من الصبر عن الطعم ما لهـذه الأجناس . وان الفيل ليناسبها من وجهين : احدهما من طول العمر ، فان منها ما قد عاش اربعمائة سنة . والوجه الآخر ان الفيلة مائية ، وان كان بعضها لا يسكن الماء .

نهشة شديدة

حدثني بعض اصحابنا عن سكر الشطرنجي ، وكان احمق القاصين ، واحذقهم بلعب الشطرنج . سألته عن خرق كان في خزامة (٣) أنفه ،

١) الحُلَكَى : والحلكاء : دويبة تغوص في الرمل ، او ضربٌ من العظاء .

٢) شحمة الارض : دودة بيضاء ، وقيل هي من المراطين ، وهي دود الارض الأحمر .

٣) الخزامة : في الأصل ، حلقة من شعر تُجعل في وتيرة انف البعير يُشدّ فيه الزمام ، المقصود هنا : وَتيرة الأنف اي ما بين المنخرين

فقلت له : «ما كان هذا الخرق ؟» فذكر انه خرج الى الجبـل يتكسب بالشطرنج . فقدم البلدة ، وليس معه الّا درهم واحد ، وليس يدري أينجح ام يُخفق ، وصاحبه الذي اعتمده أيجده ام لا . فورد على حوّاء ، وبين يديه جُوَن (١ عظام فيها حيات جليلة . والحية ، اذا عضت لم تكن غايتها النهش والعضّ ، وأن ترضى بالنهش ، ولكنهـا لا تعضّ الّا للأكل والابتلاع . وربما كانت الحيات عظاماً ولا سموم لها ، ولا تنقر بالعضّ ، كحيات الجولان . وفي البادية حيّة يقال لها : الخناث ، والخناث من الحيّات التي تأكل الفار وأشباه الفار ، ولها وعيد مُنكر ، ونفخ ، و إظهار للصولة ، وليس وراء ذلك سم ، والجاهل ربما مات من الفزع منها . وربما جمعت الحيّة السُمّ ، وشدة الجرح والعضّ ، والابتلاع ، وخطم العظم . فوقف سكّر على الحواء ، وقد اخرج من جونته أعظم حية في الارض ، و ادّعى نفوذ الرقية وجودة الترياق . فقال له سكر : « خذ مني هذا الدرهم ، وارقني رقية لا تضرني معها حية ابداً ! » قال : « فاني افعـل ! » قال : « فأرسِلْ قبل ذاك حية حتى ترقيني بعد ان تعضّني . فإن أفقت ، علمت ان رقيتك صحيحة » قال : « فاني افعل ! فاخترْ أيتهنّ شئت . » فأشار الى واحدة مما تعضّ الأكل دون السُمّ . فقال : « دع هذه . فان هذه ، إن قبضت على لحمك ، لم تفارقك حتى تقطعك . » فقال : « فاني لا اريد غيرها » وظنّ انه انما زواها عنه لفضيلة فيها . قال : « اما اذا أبيت إلّا هذه فاختر موضعاً من جسدك حتى أرسلها عليه . » فاختـار انفه . فناشده ، وخوّفه . فأبى الّا ذلك أو يردّ عليه درهمه . فاخذها الحوّاء ، وطواها على

---

١) جُوَن : ج . جُونة : سلّة صغيرة مغشّاة بالجلد .

يده كي لا يدعها تنكر، فتقطع انفه من اصله. ثم أرسلها عليه. فلما انشبت احد نابيها في شقّ انفه، صرخ صرخة جمعت عليه اهل تلك البلدة. ثم غشي عليه. فأخذ الحواء فوُضع في السجن، وقتلوا تلك الحيّات؛ وتركوه حتى أفاق كأنه اجنّ الخلق. فتطوّعوا بحمله، فحملوه مع المكاري وردّوه الى البصرة. وبقي أثر نابها في انفه الى ان مات

ظلم الحية

قال: واشياء من الحشرات لا تتخذ لنفسها، ولا لبيضها، ولا لأولادها، بيوتاً؛ بل تظلم كلَّ ذي جُحر جحرَه فتخرجه منه، او تأكله، إذا ثبت لها. والعرب تقول للمسيْ: «أظلم من حية!» لان الحية لا تتخذ لنفسها بيتاً. وكل بيت قصدت نحوه، هرب اهله منه، وأخلوه لها

الحية والوَرَل

والورل يقوى على الحيّات ويأكلها أكلاً ذريعاً. وكل شدة يلقاها ذو جحرٍ منها فهي تلقى مثل ذلك من الوَرَل. والوَرَل ألطف جرماً من الضبّ. وزعم انهم يقولون: «أظلم من وَرَل!» كما يقولون: «أظلم من حيّة!» وكما يقولون: «أظلم من ذئب!» ويقولون: «من استرعى الذئب ظُلم!» وبراثن الوَرَل اقوى من براثن الضبّ. والضِباب تحفر اجحرتها في الكدى (١)؛ والورل لا يحفر لنفسه، بل يُخرج الضبَّ من بيته. فتزعم

---

١) الكدى: ج. الكُدْية: الصخرة العظيمة، الأرض الصلبة الغليظة.

الأعراب أنها (١ صارت لا تحفر لانّ اسنانها أكلّ من أسنان الفار ، فهي لا ترى ان تُعاني ذلك ، وحفرُ غيرها ومماتاته يكفيها

وفي ضرب المثل بظلم الحيّة ، يقول مضرّس بن لقيط :

لعمرك اني لو اخاصم حيّـةً الى فَقْعَسٍ ، ما انصفتني فَقْعَسُ ! (٢
اذا قلت : مات الداء بيني و بينهم ، سعى حاطبٌ منهم لآخر يَقْبِسُ (٣
فما لكم طُلْس الي كأنكم ذئاب الغضا ، والذئبُ بالليل أطلسُ (٤

وجعله أطلس ، لأنه حين تشتدّ ظلمة الليل فهو اخفى له ، ويكون حينئذٍ أخبث وأضرى

وقال جرير بن نشبة العـدوي لبني جعفر بن كلاب ، وضرب جور الحيّة والذئب في الحكمة مثلًا ، فقال :

كأني حين احبو جعفرًا مِدَحي اسقيهم طرق ماء غير مشروبِ
ولو أُخاصم أفعى نابُها لَثِقٌ او الاساود من صمّ الأهاضيب ، (٥
لكنتم معها إلبًا ، وكان لها باب بأسفل ساق اوبعرقوب ! (٦
ولو اخاصم ذئبًا في أكيلته لجاءني جمعكم يسعى مع الذيب !

---

١) أنها : اي الأورال .

٢) فَقعس : اسم حيّ من بني أسـد . المعنى ان هؤلاء القوم يظلمونني ، حتى أني لو خاصمت اليهم حيّة ، وهي التي يُضرب المثل في ظلمها ، لم ينصفوني منها .

٣) يقبس : يأخذ النـار فيشعل بها — المعنى : انهم يتفقون على إضرام العداوة ، فواحد يجيء الحطب وواحد يشعل النار.

٤) طُلس : ج . أطلس : الذئب الأمعط في لونه غُبرة الى السواد . الغَضا : شجر عظيم صلب الخشب . ذئب الغضا : مثل في الخبث والاحتيال .

٥) لَثِق : اي نديّ مبتلّ ، يريد ان نابها مبتلّ بالسُّم

٦) إلبًا : يُقال : هم عليه أَلْب وإِلْب : اي مجتمعون بالظلم والعداوة

فم الحية

قال : والحية واسعة الشحو (١ والفم ، ولذلك ينفذ نابها . وكذلك كل فم واسع الشحو كفم الأَسد . فاذا اجتمع لـه سعة الشحو وطول اللحيين ، وكان ذا خَطْم وخرطوم ، فهو اشـدّ له كالخنزير والذئب والكلب . ولو كان لرأس الحية خطمٌ كان أشدّ لعضّتها ، ولكنه جلد قد انطبق على عظمين رقيقين مستطيلين بفكّيها الأعلى والأسفل . وكذلك اذا اهوى لرجل بحجر او عصا ، رأيتها تلوي رأسها ، وتحتال في ذلك ، وتمنعه بكل حيلة . لانها تعلم وتحسّ بضعف ذلك الموضع منهـا ، وهو مقتل

وما اكثر ما يكون في اعناقها تخصير ، ولصدورها أغباب (٢ ، وذلك في الأَفاعي اعمّ . وذلك الموضع انما هو شيء كهيئة الخريطة ، وكهيئة فم الجراب مثنّى الغضون ، فاذا شئت ان تفتح انفتح لك فمٌ واسع

ولذلـك قال ابراهيم بن هانئ : « كأن فتح فم الجراب يحتاج الى ثلاث ايدٍ ! ولولا أن الحمالين قد جعلوا أفواههم بدل اليد الثالثة ، لقد كان ذلك ممتنعاً حتى يستعين بيد إنسان ! » وهذا مما يُعدّ في مجون ابن هانئ

وكذلك حلوق الحيّات ، واعناقها ، وصدورها ، قد تراها ؛ فتراها

---

١) الشحو : يريد به فتحة الفم

٢) اغباب : جـ غَبَب : اللحم المتدلي تحت الحنك

في العين رقيقة ، ولاسيما اذ افرطت في الطول . وهي تبتلع فراخ الحمام . والحية أنهم واشره من الأسد ، والأسد يبلع البضعة العظيمة من غير مضغ ، وذلك لما فيه من فضل الشره ؛ وكذلك الحية ، وهما واثقان بسهولة وسعة المخرج

مرويّات غريبة

التنّين — الأَصَلَة — الأجدهاني

ومما عظّمها ، وزاد في فزع الناس منها ، الذي يرويه اهل الشام ، واهلُ البحرين ، واهل انطاكية . وذلك اني رأيت الثلث الاعلى من منارة مسجد انطاكية أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين . فقلت لهم : « ما بال هذا الثلث الاعلى اجدّ واطرى ؟ » قالوا : « لأنَّ تنّيناً يرتفع من بحرنا هذا ، فكان لا يمرّ بشيء الا اتلفه . فمرَّ على المدينة في الهواء ، محاذياً لرأس هذه المنارة ، وكان اعلى مما هي عليه . فضربه بذنبه ضربةً خرقت من الجميع اكثر من هذا المقدار . فاعادوه بعد ذلك . ولذلك اختلف في المنظر . » ولم يزل اهل البقاع يتدافعون امر التنّين . ومن اعجب انك تكون في مجلس ، وفيه عشرون رجلًا ، فيجري ذكر التنين ، فينكره بعضهم ، واصحاب التثبيت يدّعون العيان ، والموضع قريب ، ومن يعاينه كثير وهذا اختلاف شديد

والاعراب تقول في الأَصَلَة قولًا عجيباً : تزعم ان الحية التي يُقال لها « الأَصَلَة » لا تمرّ بشيء إلّا احترق ، مع تهاويل كثيرة ، واحاديث شنيعة وتزعم الفرس أن الأجدهاني أعظم من البعير ، وان لها سبعة رؤوس

وربما لقيت ناساً ، فتبتلع من كل جهة فم ورأس انساناً . وهو من احاديث الباعة والعجائز

وقد زعم صاحب المنطق انه قد ظهرت حية لها رأسان . فسألت اعرابياً عن ذلك ، فزعم ان ذلك حقّ . فقلت له : « فمن ايّ جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيّهما تأكل وتعضّ ؟ » فقال : « فاما السعي فلا تسعى ؛ ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلّب ، كما يتقلّب الصبيان على الرمل . واما الاكل فإنها تتعشّى بفم ، وتتغدّى بفم . واما العضّ فانها تعضّ برأسيها معاً . » فاذا به اكذب البريّة

طول عمرها

وتقول الاعراب ان الحيّة اطول عمرًا من النسر ، وان الناس لم يجدوا حية قط ماتت حتف انفها ، وانها تموت بالأمر الذي يعرض لها . وذلك لامور منها قولهم ان فيها شياطين ، وان فيها مسخ ، وان ابليس انما وسوس الى آدم والى حوّاء من جوفها

ومن الحيات الحُرد ، والزّعر (١) ومنها ذوات شعر ، ومنها ذوات قرون

ذكر الحية في القرآن والحديث

ذكر حادثة موسى

واما الذي لا اشك في انه قد زاد في اقدارها في النفوس ، وعظّم

---

١) الزُعر جـ أزعر : القليل الشعر المتفرّقه

من أخطارها ، وهوّل من امرها ، ونبّه على ما فيها من الآية العجيبة ، والبرهان النيّر، والحجة الظاهرة ، فهو في قلب العصا حيّة ، وفي ابتلاعها ما هوّل به القوم (١ وسحروا من اعين الناس ، وجاؤوا به من الإفك . قال الله ، عزّ وجلّ : «وقال موسى : «يا فرعون ! اني رسول من ربّ العالمين، حقيق على ان لا اقول على الله الّا الحق . . . (الى) . فارسل معي بني إسرائيل . . . » قال : « ان كنتَ جئت بآية ، فأتِ بها ان كنت من الصادقين .»فالقى عصاه ، فاذا هي ثعبان مبين» (الى قوله) « فالقوا حبالهم وعصيّهم .» (٢

قول بعض المعترضين

فان قلتَ : انه انما حوّل العصا ثعباناً لانهم جاؤوا بحبالٍ وعصي ، فحوّلوها في اعين الناس كأنها حيّات ؛ فلذلك قلب الله العصا حية على هذه المعارضة ؛ ولو كانوا حين سحروا اعين الناس ، جعلوا حبالهم وعصيهم ذئاباً في اعين الناس ، وغوراً ، لجعل الله عصا موسى ذئباً او نمرًا ؛ فلم يكن ذلك لخاصّة في بدن الحيّة ؟

الجواب على الاعتراض

قلنا : الدليل على باطل ما قلتم قولُ الله تعالى : « وما تلك بيمينك ، يا موسى ؟ قـال : هي عصاي ! اتوكأ عليها ، واهشّ بها على غنمي ، ولي فيها مآرب اخرى . قال : القها يا موسى ! فالقاها . فاذا هي حيّة تسعى .» (٣

١) القوم : المراد هم قوم فرعون
٢) القرآن : سورة (٢٦ [الشعراء] عدة ايات مع بعض الاختلاف)
٣) القرآن : سورة (٢٠ [طه] ١٨–٢٢)

وقال الله عزّ وجلّ: « اذ قال موسى لأهله: اني آنست ناراً . . . (الى قوله) «وألقِ عصاك. فلما رآها تهتزّ كأنها جان، ولّى مدبراً ولم يُعقّب يا موسى لا تخفْ، إنك من الآمنين» (١ فقلبت العصا جاناً، وليس هناك حبال ولا عصي. « وقال الله: لئن اتخذت الهاً غيري لأجعلنك من المسجونين! قال: او لو جئتك بشيء مبين؟ قال: فأتِ به، إن كنت من الصادقين. فالقى عصاه فاذا هي ثعبانٌ مبين » (٢ فقلب العصا حية كان في حالات شتى. فكان هذا مما زاد في قدر الحية

وقد ورد انه (صلعم) قال في دعائه ان لا يميته الله لديغاً

لسان الحية

والحية مشقوقة اللسان سوداؤه. وزعم بعضهم ان لبعض الحيّات لسانين. وهذا عندي غلط. واظن انه لما رأى افتراق طرفي اللسان، قضى بان له لسانين

ويُقال: ارض محواة ومحياة من الحيات، كما يقال ارض مضببة وضبية من الضباب، وفائرة من الفار

ما يأكل الحيات من الحيوان

ذكر القنفذ

بين الحيات وبين الخنازير (٣ عداوة، والخنازير تأكلها أكلاً ذريعاً.

---

١) القرآن: سورة (٢٧ [النمل] ١٠)
٢) القرآن: سورة (٢٦ [الشعراء] ٢٨-٣٣)
٣) كذا بمراجعة لفظة «بين» والمشهور انها لا تُراجع الا اذا اتصل بالاولى ضمير.

وسموم ذوات الانياب من الحيات ومن ذوات الإبر سريعة في الخنازير، وهي تهلك عند ذلك هلاكاً وشيكاً . فلذلك لا ترضى بقتلها حتى تأكلها . وتأكل الحيات العقبانُ ، والأيائل ، والاراوى ، والاوعال ، والسنانير ، والشاهمرك ، (١ والقنفذ . الا ان القنفذ اكثر ما يقصد الى الافاعي . وانما يظهر بالليل . قال الراجز :

قنفذُ ليلٍ دائمُ التجاّبِ

وهذا الراجز هو ابو محمد الفقعسي . وكذلك يشبّه النمام ، والمداخل، والربيس (٢ بالقنفذ ، لخروجه بالليل دون النهار ، ولاحتياله للافاعي . قال عبدة بن الطبيب :

اعصوا الذي يلقي القنافذَ بينكم ، متنصّحاً ، وهو السِمامُ الأنقعُ !
يزجي عقاربَه ليبعثَ بينكم حرباً ، كما بعث العروقَ الأخدعُ ! (٣

. . .

ان الذين ترونهم خُلَّانكم يشفي صداعَ رؤوسهم أن تُصرَعوا ،
قومٌ ، اذا دمس الظلام عليهم ، جدعوا ، قنافذَ بالنميمة تَمزَعُ ! (٤

وهذا الشعر من غرر الأشعار وهو مما يُحفظ . وقال الأودي :

كقنفذ القَزّ لا تخفى مدارجُه ، خَبٌّ ، اذا نام عند الناس ، لم ينمِ (٥

---

١) الشاهمرك : معرّب « الشاه مَرْغ » : ملك الطير ، ويقال له « الشاه مَرْك » : الفتي من الدجاج .

٢) الربِيس : الداهية .

٣) الأخدع : عرق كبير في العنق ، وهو شعبة من الوريد .

٤) تمزَع : تُسرع .

٥) مدارج : ج . المَدرج : المسلك ، المدبّ . الخَبّ : الخدّاع .

وفي عهد آل سجستان على العرب ، حين افتتحوها ؛ «لا تقتلوا قنفذاً ولا ورلاً تصيدونه» لأنها بلاد افاعي ، واكثر ما يجتلب اصحاب صنعة الترياق والحوّاوون الافاعي من سجستان . وذلك كسب لهم ، وحرفة ومتجر . ولولا كثرة قنافذها ، لما كان لهم بها قرار . والقنفذ لا يبالي اي موضع قبض من الافعى . وذلك انه ان قبض على رأسها ، او على قفاها ، فهي مأكولة على أسهل الوجوه . وان قبض على وسطها ، او على ذنبها ، جذب ما قبض عليه فاستدار وتجمّع ، ومنحه سائر بدنه . فمتى فتحت فاها لتقبض على شيء منه لم تصل الى جلده ، مع شوكه النابت فيه . والافعى تهرب منه ؛ وطلبه لها وجرأته عليها على حسب هربها منه وضعفها عنه

واما قولهم اضلّ من حية ، واضل من وَرَل ، واضلّ من ضبّ ، فامّا الحية فانها لا تتخذ لنفسها بيتاً . والذكر لا يُقيم في الوضع ، وانما يقيم على بيضها بقدر ما تخرج فراخها ، وتقوى على الكسب ، والتماس الطعم . ثم تصير الانثى سيارة ، فمتى وجدت حجراً ، دخلت واثقة بان الساكن فيه بين أمرين : إما اقام ، فصار طعماً لها ؛ وإما هرب ، فصار البيت لها ما اقامت فيه ساعة ، كان ذلك من ليل او نهار

بيض الحيّات

وقد رأيت بيض الحيّات ، وكسرتها لأتعرّف ما فيها . فاذا هو بيض مستطيل ، أكدر اللون ، اخضر . وفي بعضه هشّ ولمع . فاما داخله فلم ارَ قيحاً قط ، ولا صديداً خرج من جرح فاسد ، إلّا والذي في بيضها

أسمج منه وأقذر . ويزعمون انها كثيرة البيض جدًّا ، وان السلامــة في بيضها دون ذلك ؛ وان بيضها يكون منضّدًا في جوفها طولًا على غِرارٍ (١ واحد ، وعلى خيط واحد . وهي طويلة البطن والأرحام ، وعدد اضلاعها عدد ايام الشهر . وكان ذلك بعض ما زاد في شدّة بدنها . كنتُ بَعَجتُ بطن عقرب ، اذ كنتُ بمصر ، فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو ارزّة ، حزره ابو بكر السروكني

والخلق الكثير الذرّ (٢ الدجاج ؛ والضبّ اكثر بيضاً من الدجاجة ؛ والخنزيرة تضع عشرين خِنَّوصاً . ويخرج من اجواف العقارب عقارب صغار كثيرة العدد جدًّا . وعامّة العقارب ، اذا حبلت ، كان حتفها في اولادها . لأن اولادها ، اذا استوى خلقُهــا ، اكلت بطون امّهاتها حتى تثقبها ، وتكون الولادة من ذلك الثقب ؛ فتخرج ، والأمّهات ميتة . واكثر من ذلك كله ذَرْء السمك . انما طبعها ان يأكل بعضها بعضاً

انسياب الحيّات

واذا انسابت في الكثبان والرمل يبيــن مواضع زحفها ، وعُرفت آثارها . قال الشاعر :

كأنَّ مزاحفَ الحيأت فيهــا ، قُبَيــل الصبحِ ، آثارُ السياطِ !

وكذلك يعرفون آثار العظاء ، وانشد ابن الاعرابي :

بها ضرب أذناب العظاء ، كأنها ملاعبُ وُلدان تخطّ وتمصــعُ (٣

١) الغِرار : المثال ، الطريقة . على غِرارٍ واحد : اي على طريقة واحدة .
٢) الذرّ : هنا : مصدر ذرّ : نثر وفرّق ، والمراد به الذرّية اي الأولاد .
٣) تمصع : مصعت الدابة بذنبها : حرّكته ، مصع : مرّ مرًّا خفيفاً .

قشر الحية

ولا ثوب ، ولا جناح ، ولا ستر عنكبوت ، إلّا وقشر الحية احسن منه ، وارقّ ، واخفّ ، وأنعم ، واعجب صنعةً وتركيباً . ولذلك وصف كُثَيّر قميص ملك فشبّهه بسلخ الحية حيث يقول :

يجرّ سربالًا عليه كأنه سبيء لهذلى لم تقطّعْ سرادقه ! (١

والسبيْ السلخ والجلد . قال الشاعر :

وقد نصل الاظفر وانسبأ الجلدُ !

صمم لافعى

وتزعم العرب ان النعام والافعى صمّ لا تسمع ، وكذلك هما من بين جميع الخلق . وسنذكر من ذلك في هذا الموضع طرفاً ، ونؤخر الباقي الى الموضع الذي نذكر فيه جملة القول في النعام

وقد ابتلينا بضرْبَين من الناس دعواهما كبيرة . احدهما يبلغ من حبّه للغريب ان يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذّابين ، وقلبه قرارًا لغرائب الزور . ولكلفه بالغريب ، وشغفه بالطرَف ، لا يقف على التصحيح والتمييز ؛ فهو يدخل الغثّ في السمين ، والممكن في الممتنع ، ويتعلّق بادنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع . والصنف الآخر وهو ان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلّم الا من خاف التقذّر من الكذب فزعم ناس ان الدليل على ان الافاعي صمّ قول الشاعر :

---

١) الهذلى : الحية .

انت نضناضاً من الحيَّاتِ اصم لا يسمع للرُقياتِ (١

ثم يأتي الجاحظ بمناظرة في ما اذا كانت الافعى صمّاء او لا ، وكيف تسمع وتستخرَج من حجرها بالرقي، ويورد اقوال الشعراء في ذلك

تأثير الصوت

وامر الصوت عجيب، وتصرّفه في الوجوه أعجب ! فمن ذلك ان منه ما يقتل كصوت الصاعقة. ومنه ما يسرّ النفوس حتى يفرط عليها السرور، فتقلق حتى ترقص، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق ؛ وذلك مثل هذه الاغاني المطربة. ومن ذلك ما يكمد. ومن ذلك ما يُزيل العقل حتى يُغشى على صاحبه، كنحو هذه الاصوات الشجية، والقراءات الملحّنة ؛ وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني لانهم، في كثير من ذلك، لا يفهمون معاني كلامهم. وقد بكى ماسرجويه من قراءة ابي الخوخ ؛ فقيل له: «كيف بكيت من كتاب الله، ولا تصدّق به ؟» قال: «ابكاني الشجا !»

وبالاصوات ينوّمون الصبيان والاطفال. والدوابّ تصرّ آذانها، اذا غنّى المكاري. والابل تصرّ آذانها، اذا حدا في اثرها الحادي، وتزداد نشاطاً، وتزيد في مشيها. ويجمع بها الصيّادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له. وذلك انهم يضربون بعصي معهم، ويُعَطْعِطُون ؛ فتقبل

١) النضاض والنضناضة: من الحيات: التي تحرك لسانها فتحرّكه ؛ التي لا تستقرّ في مكان ؛ التي تقتل اذا نهشت. الرُقيات: ج. الرُقية: ما يُستعان به للحصول على امر يفوق القوى الطبيعية ؛ هنا: ما يُصنع من العزائم لمنع سريان السُم في الملسوع، او لاستخراج الحية من جحرها.

اجناس السمك شاخصة الابصار ، مصغية الى تلك الاصوات حتى تدخل في الحظيرة . ويضرب بالطساس للطير ، وتُصاد بها . ويُضرب بالطساس للأُسد ، وقد اقبلت ، فتردعها تلك الاصوات . وقال صاحب المنطق : الأيائل تُصاد بالصفير والغناء ، وهي لا تنــام ما دامت تسمع ذلك من حاذق الصوت ، فيشغلونها بذلك ويأتون من خلفها . فان رأوها مسترخية الآذان ، وثبوا عليها . وان كانت قائمة الأذنين ، فليس اليها سبيل . والصفير تُسقى به الدوابّ الماء ، وتنفر به الطير عن البذور

وزعم صاحب المنطق أن الرعد الشديد ، اذا وافق سباحة السمك في اعلى الماء ، رمت ببعضها قبل انتهاء الاجل

تأثير الرعد على الكمأة

وقال ابو الوجيه العكلي : « احب السحابة الخرساء ولا أحبّها ! » فقيل له : « وكيف ذلك ؟ » قال : « لأنها لا تخرس حتى تمتلئ مــاء ، وتصبّ صبًا كثيرًا ، ويكون غيثًا طبقًا ؛ وفي ذلك الحياة . الّا ان الكمأة لا تكون على قدر الغيث . » ذهب الى ان للرعد في الكمأة عملًا . وقال جعفر بن سعيد : سأل كسرى عن الكمأة . فقيــل له : « لا تكون بالمطر دون الرعد ، ولا بالرعد دون المطر ! » (قال) فقال كسرى : « رشّوا بالمــاء ، واضربوا بالطبول ! » وهذا كان من جعفر على التملّح ، وقد علم ان كسرى لا يجهل هذا المقدار

عود الى الحية

فالحية واحدة من جميع اجناس الحيوان الذي للصوت في طبعه عمل . فاذا دنا الحوّاء ، وصفق بيديه ، وتكلّم رافعًا صوتــه حتى يزيد ، خرج

اليه كل شيء كان في الحجر. فلا يشك من لا علم له ان الحية خرجت من جهة الطاعة، وخوف المعصية؛ وان العامر (١ اخرجها تعظيماً للعزيمة، ولأن المعتزم مطاعٌ في العمار. والعامة أسرع شيء الى التصديق!

ذكر الخلق وعصيان آدم

ويورد الجاحظ بعض ابيات لأمية بن ابي الصلت يذكر فيها حكاية الطوفان وذكر الحية، وشأن ابليس وشأنها. ثم يردف الابيات بقوله :

فان قلت ان أمية (٢ كان أعرابياً، وهذا من خُرافات اعراب الجاهلية، وزعمت أن امية لم يأخذ ذلك عن اهل الكتاب؛ فاني سأنشدك لعديّ بن زيد (٣، وكان نصرانياً ديّاناً، وترجماناً، وصاحب كتب، وكان من دهاة ذاك العصر. قال عديّ بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته، وكيف اغواه الشيطان، وكيف دخل في الحية، وان الحية كانت في صورة جمل، فمسخها الله عقوبةً لها حين طاوعت عدوّه على وليّه، فقال :

قضى لستّة أيّام خليقته ؛ وكان آخرها أنْ صوَّر الرجلا .

---

١) العامر : في اعتقاد العرب، ما يختلط بالناس من الجنّ .

٢) امية بن ابي الصلت : († ٦٢٠) شاعر جاهلي من بني ثقيف في الطائف. اشتهر بالزهد، وتحريم الخمر، وترك عبادة الاوثان، والديانة بالحنيفية، ويظنّ البعض انه كان نصرانياً . على آثاره ستار كثيف من الشكّ، وبين شعره وبعض الآيات القرآنية شبه كبير حمل المستشرق هوار (Huart) على الظنّ ان محمداً استعان به، ولعلّ الحقيقة ان هذه الاشعار منحولة .

٣) عدي بن زيد : شاعر جاهلي نصراني من الحيرة، تأثر في شعره بالآداب الفارسية، واشتهر بوصف الخمر، قتله النعمان بن المنذر .

دعاه آدم صوتاً ، فاستجاب له ، بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
ثمّتَ اورثه الفردوسَ يعمره ، وزوجه صنعةً ، من ضلعه ، جعلا
لم ينهه ربّه عن غير واحدةٍ : من شجر طيب ان شمّ او أكلا (١
فكانت الحيّة الرقشاء ، إذ خُلقت ، كما ترى ناقةً ، في الخَلق ، او جملا
فعمدا للتي عن أكلها نُهيا بامر حوّاء ، لم تأخذ له الدغلا
كلاهما خاط اذ برا لبوسهما من ورق التين ثوباً لم يكن غزلاً .
فلاطها الله اذ اغوت خليقته ، طولَ الليالي ، ولم يجعل لها أجلا ، (٢
تمشي على بطنها في الدهر ما عمرت والترب تأكله حزناً وإن سهلا
فاتعبا ابواها في حياتها واوجدا الجوع والاوصاب والعللا
واوتيا الملك والانجيل نقرأه نشفي بحكمته احلامنا عللا
من غير حاجة الّا ليجعلنا فوق البرية ارباباً كما فعلا

عقاب الحية

فرووا ان كعب الأحبار (٣ قال : مكتوب في التوراة ان حواء ، عند ذلك ، عوقبت بعشر خصال . وان آدم ، لما اطاع حوّاء وعصى ربّه ، عوقب بعشر خصال . وان الحية التي دخل فيها ابليس عوقبت ايضاً بعشر خصال . . . وأما الحية فانها عوقبت بقصّ جناحها ؛ وقطع أرجلها ؛ والمشي على بطنها ؛ وباعراء جلدها حتى يُقال : « أعرى من حية ! » وبشقّ لسانها ، ولذلك كلما خافت من القتل أخرجت لسانها لتريهم العقوبة ؛ وبما أُلقي عليها من عداوة الناس ؛ وبمخافة الناس ؛ وبجعله لها اوّل ملعون من

١) كذا في الأصل . ٢) لاطها : جعلها لاصقة بالارض
٣) كعب الأحبار : رجل اصله من يهود اليمن ، اسلم في خلافة عُمر ، وتوفي في حمص سنة ٦٥٣ . يروي عنه المؤرخون والمفسّرون كثيراً من الاحاديث والغرائب المتعلّقة بقدماء العرب وغيرهم من الشعوب . على ان أكثر هذه الاساطير لا صحة لها .

اللحم والدم ؛ وبالذي يُنسب اليها من الكذب والظلم . فاما الظلم فقولهم : « أظلم من حية ! » واما الكذب فانها تنطوي في الرمل على الطريق ، وتُدخل بعض جسدها في الرمل ، تَنتظر كأنها طبق خيزران . ومنها حيّات بيض قصار تجمع بين أطرافها على طُرُق النـاس ، وتستدير كأنها طوق خلخال او سوار ذهب او فضة ؛ ولِمـا تُلقي على نفسها من النبات ؛ ولِما تُظهر من الهرب من الناس . وكل ذلك انما تغرّهم وتصطادهم تلك الحيلة . فذلك هو كذبها

عقاب الارض

قـال : وعوقبت الأرض حين شربت دم ابن آدم بعشر خصال : أنبت فيها الشوك ؛ وصيّر فيها الفيافي ؛ وحرق فيها البحار ؛ وملّح اكثر مائها ؛ وخلق فيها الهوامّ والسباع ؛ وجعلها قرارا لإبليس والعـاصين ؛ وجعل جهنّم فيها وهي تعذّب بهم الى يوم القيامة ؛ وجعلها لا تربّي ثمرتها الّا في الحرّ ؛ وجعلها توطأ بالأخفاف ، والحوافر ، والاظلاف ، والقوادم ؛ وجعلها مالحة الطعم . ثم لم تشرب ، بعد دم ابن آدم ، دم احد من وُلده ، ولا من غير وُلده . قال : ولذلك قال عمر بن الخطّاب (رضه) لابي مريم الحنفي : « لأنا اشدُّ لك بغضاً من الأرض لدم ! » وزعم صاحب المنطق ان الأرض لا تشرب الدم الّا يسيراً من دماء الإبل خاصّة

واذا ارادوا ان يمتحنوا جودة العسل من رداءته ، قطروا على الارض منه قطرة . فان استدارت كانها قطعـة زئبق ، ولم تأخذ من الأرض ولم تعطها ، فهو الماذيّ الخالص الذهبي . فان كان فيه غشوشة ، تفشّت القطرة على ما فيها واخذت من الأرض واعطتها

وان لم يقــدروا على اللحم الغريض (١ دفنوه وغرّقوه في العسل. فانهم متى رجعوا، فسلوه عنه، وجدوه غضًا طريًا. لأنه (٢ ذهبي الطباع ليس بينه وبين سائر الأجرام شيء، فهو لا يعطيه شيئاً ولا يأخذ منه. وكذلك الذهب اذا كان مدفوناً

وبعد ان يذكر بعض مزاعم في قدم الزمان ويورد شيئًا عن فائدة اقوال المفسّرين ، والمعتزلة ، واتبــاع ابراهيم النظّام ، أستاذه ، يُدرك انه اطال الكلام فيقول معتذرًا :

اعتذار الجاحظ عن إطالة كلامه

وما اكثر ما يعرض في اطالتي الكلام، واطنــابي في القول، بيت ابن هرمة حيث يقول:

ان الحديث تغرّ القوم حلوتُه حتى يلجَّ جم عيٌ وإكثارُ!

وانا اعوذ بالله ان أغرَّ من نفسي عند غيبة خصمي، وتصفّح العلماء لكلامي. فاني اعلم أن فتنة اللسان والقــلم اشدّ من فتنة النساء، والحرص على المال. وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه. اوّل ذلك: العلّة الشديدة. والثانية: قلّة الاعوان. والثالثة: طول الكتاب. والرابعة: أني لو تكلّفت كتاباً في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العَرض والجوهر، والصفرة والتوليد، والمداخلة، والغرائز، والنحاس، لكان أسهل، وأقصر اياماً، واسرع

١) الغريض : الطري من اللحم .
٢) لأنه : الضمير للعسل .

فراغاً. لاني كنت لا افرغ فيه الى تلقُّط الأشعار ، وتتبع الامثال ، واستخراج الآي من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الامور في الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال . فان وجدتَ فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، ومن تقطيع نِظام ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه ، فلا تُنكر ، بعد أن صوَّرتُ عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي . ولولا ما ارجو من عون الله على اتمامه ، اذ كنت لم التمس به الّا افهامَك مواقع الحجج لله ، وتصاريف تدبيره ، والذي اودع اصناف خَلقه من اصناف حكمته ، لما تعرّضت لهذا المكروه . فان نظرتَ في هذا الكتاب ، فانظرْ فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا تذهب مذهب التعنُّت ، ومذهب من اذا رأى خيرًا كتمه ، واذا رأى شرًّا اذاعه .

عود الى الحيات

انواعها

والحيات مختلفات الجهات جدًّا ؛ وهي من الامم التي يكثر اختلاف اجناسها في الضرر والسمّ ، وفي الصغر والعظم ، وفي التعرّض للناس ، وفي الهرب منهم . فمنها ما لا يؤذي الا ان يكون الناس قد آذوها مرة

واما الأسود فانه يحقد ، ويُطالب ، ويكمن في المتاع حتى يدرك بطائلته . وله زمان يقتل فيه كلّ شيء نهشه

واما الأفعى فليس ذلك عندها . ولكنها تظهر في الصيف ، مع اول الليل ، اذا سكن وهج الرمل وظاهر الأرض ، فتأتي قارعة الطريق حتى

تستدير وتنطحن كأنها رحى . ثم تلصق ذنبها بالأرض ، وتشخص رأسها لئلّا يُدركها السُبات ، معترضةً لئلّا يطأها انسان او دابة ، فتنهشه . كأنها تريد ان لا تنهش الا بأن يعترض لها ، وهي قد تعرّضت لنهشه باعتراضها في الطريق ، وتناومها عليه . وهي من الحيات التي ترصد وتوصف بذلك والافعى تقتل في كل حال وفي كل زمان

والشجاع يواثب ويقوم على ذَنَبه، وربما بلغ رأسُه رأسَ الفارس وليس يقتلها (١) ، اذا تطوّقت الطريق وفي المناهج ، او اعترضتها لتقطعها عابرة الى الجانب الآخر ، شيء كأقاطيع الشياه اذا مرّت بها . وكذلك الإبل الكثيرة اذا مرّت . فان الحيّة ، اذا وقعت بين ارجلها ، كان همّها نفسها ، ولم يكن لها همّ الّا التخلّص بنفسها لئلّا تعجلها بالوطء فان نجت من وطء ايديها ، لم تنجُ من وطء أرجلها ؛ وان سلمت من واحدة ، لم تسلم من التي تليها الى آخرها

ذكر العقرب

ومن ذلك ان العقرب تقع في يد السنّور ، فيلعب بها ساعة من الليل وهي في ذلك مسترخية مستخذية لا تضربه . والسنانير من الخلق الذي لا تُسرع السموم فيه

وربما باتت الافعى عند رأس الرجل ، وعلى فراشه فلا تنهشه . واكثر ما يوجد ذلك من القانص والراعي . والعقارب في ذلك دون الحيّات ؛ الا حرّارت فانها ربما باتت في لحاف الرجل الليلة بأسرها ، وتكون في قميصه

---

(١) يقتلها : ضمير المفعول للحيّة .

عامة يومها ، فلا تلسعه . فهي بالافعى اشبه . فاما سائر العقارب فانها تقصد الى الصوت ، فاذا ضربت انساناً فرّت ، كما يصنع المسيء الخائف

والعقرب لا تضرب الميت ، ولا المغشي عليه ، ولا النائم ، إلّا ان يحرّك شيئاً من جسده ، فانها عند ذلك تضربه

ويقال انها تأوي مع الخنافس ، وتسالمها ولا تصادق من الحيّات الّا كل أسود سالخ

قال الفضل بن عباس ، حين راهنه عقرب بالشعر ، وقيل لكل واحد منهما : لستَ في شيء حتى تغلب صاحبك . فقال الفضل :

قد تتجر العقرب في سوقنا ؛ لا مرحباً بالعقرب التاجرَه !
كل عـدوّ يُتّقى مقبـلًا ، وعقربٌ تُخشى من الدابره !
قد ضاقت العقرب ، واستيقنت أن لا دنيـا ولا آخره .
ان عادت العقرب ، عدنا لها ؛ وكانت النعلُ لهـا حاضرَهْ !

واسمُ امّ حارثة بن بدر « عقرب » . وآل ابي موسى يكنون « ببني عقارب » ومن هؤلاء الذين يكنون « بالعقرب » ، ابن ابي العقرب الليثي خطيب الفصيح ، الراوية

ورووا ان عقرباً لسعت النبي (صلعم) فقال : « لعنها الله ! فانها لا تبالي من ضربت . » وقال الضبي : « انا عقرب اضرّ ، ولا انفع . »

اسمة العقرب

وكان الرجل تلسعه الجرارة ، بعسكر مكرم او بجُندَيسابور ، فتقتله . وربمـا تناثر لحمه ، وربما تعفّن وانتن حتى لا يدنو منه احد ، الا

وهو مخمّر انفه (١ مخافة إعدائه ؛ ولاسيما ان كان قد نال من اللحم . وهو يعلم ان الوخزة التي وُخزها كانت من جرّارة . وكانوا ، اذا شعروا بها ، دعوا حجّاماً يحجم ذلك الموضع ، ويمصّه قبـل ان يتفشى فيه السُمّ ، ويدخل تلك المداخل . فكان الحجّام لا يجيبهم حتى يقبض دنانير كثيرة . وانما كانوا يجودون له بذلك ، لما كان لصاحبهم في ذلك من الفَرَج ، وما على الحجّام في ذلك من الضرر . وذلك ان وجهه ربمّا اسمارّ واربدّ ، وربما عطّلت مقاديم اسنانه وتوجّعت عليه ، فيلقى من ذلك الجهد . وذلك لمـا كان يتّصل الى فيه من بُخار الدم ، ومن ذلك السُم المخالط لذلك الدم

ثم انهم بعد ذلك حشوا ذُباب(٢ المحاجم (٣ بالقطن . فصار القطن لا يمنع قوّة المصّ والجذب ، ولا يدعه يصل الى فمّ الحجام

ثم انهم بعـد مدة سنيات اصابوا نبتة في بعض الشُعَب ، فاذا عالجوا الملسوع بها ، حسنت حاله

قيل لمـاسرجويه : قد نجد العقرب تلسع رجلين ، فتقتل احدهما ، ويقتلها الآخر . وربما نجت ولم تمت . كما انه ربما عقرت ولم تفُت ونجدها تضرب رجلين في ساعة واحدة ، فيختلفان في سوء الحال . ونجدها تختلف مواضع ضررها على قدر الأزمان ، وعلى قدر مواضـع الجسد . ونجد

---

١) مخمّر انفه : يعني واضعاً الخمار ، والخمار : ستر رقيق من القماش

٢) الذُباب : والذُباب الهنـدي : الدرنوح الذي تستعمله الاطباء في الحرّاقات .

٣) المحاجم : ج . محجم ومحجمة : قـارورة او كأس تُستعمل في الحجامة .

واحدًا يتعالج بالَمسوس (١ فيحمده ؛ ونجد آخر يدخل يده في مدخل حار من غير ان يكون فيه ماء فيحمده . ونجد كل واحد من هؤلاء يشكو خلاف ما يوافقه . ثم انا نجده يعاود ذلك العلاج عند لسعة اخرى فلا يحمده

قال ما سرجويه : لما اختلفت السموم في انفسها بالجنس والقدر ، وفي الزمان ، وباختلاف ما لقيه ، اختلف الذي وافقه على حسب اختلافه .

وكان يقول : إن قول القائل في العقرب : « شرّ ما تكون حين تخرج من حجرها » ليس يعنون من ليلتها ، واذا كان لا بدّ من ان يكون لها نصيب من الشدة . ولكنهم انما يعنون في اول ما تخرج من حجرها عند استقبال الصيف ، بعد طول مكثها في غير عالمنا ، وغذائنا ، وانفاسنا ، ومعايشنا . والعامّة تزعم انها شرّ ما تكون اذا ضربت الانسان وقد خرج من الحمّام ، لتفتّح المسام وسعة المجاري ، وسخونة البدن . ولذلك صار سمّها في الصيف أشدّ . هذا قول ابي اسحق كأنه كان يرى ان الهواء كلما كان أحرّ ، وكان البدن اسخن ، كان شرًّا . ونحن نجدهم يصرخون من لسعتها الليل كلّه ، واذا طلعت الشمس سكن ما بهم . فاذا بقيت فضلة من تلك الجارحة في الشمس فما اكثر ما يسكن ، وسمومها بالليل اشدّ ؛ أَلّا أن يزعم ان اجواف الناس في برد الليل اسخن ، وفي حرّ النهار افتر

بعض مزاعم

وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب وهو في إرث منها ، ان حيّة يُقال لها « الدسّاس » تلد ولا تبيض . وان انثى النمور لم تضع نمرًا قط

---

١) المَسوس : او البَادزَهر : حجر يُنسب اليه قوى غريبة في مقاومة السموم . فارسي معناه روح السُم (باد = روح + زهر = سم)

إلا ومعه افعى . والاعراب تزعم ان الكمأة تبقى في الأَرض ، فتمطر مطرة صيفية ، فيستحيل بعضها افاعي . فسمع هـذا الحديث مني بعض الروساء الطائيّين ، فزعم لي انه عاين كَمأة ضخمة فتأملها ، فاذا هي تتحرَّك فنهض اليها فقلعها ، فاذا هي افعى . هذا ما حُدّثْتُه عن الأعراب حتى بَرِئت الى الله من عيب الحديث !

وزعم صاحب المنطق ان الوَزَغة والحيـات تأكل اللحم والعشب . وزعم ان الحيات اظهر كَلَباً من جميع الحيوان مع قلّة شرب الماء ؛ وان الأَسد ، مع نهمه قليل شرب الماء . قال : ولا تضبط الحيَّات انفسها اذا شمّت ريح السذاب ، وربما اصطيدت به . واذا اصابوها كذلك وجدوها وقد سكرت . قال : والحيات تبتلع البيض والفراخ والعشب

سلخ الحية

وزعم ان الحيَّات تسلخ جلودهـا في اول الربيع ، عند خروجها من اعشّتها ؛ وفي اول الخريف وزعم ان السلخ يبتدئ من ناحية عيونها اولًا . قال : ولذلك يظنّ بعض من يعاينها انها عمياء . وهي تسلخ من جلودها في يوم وليلة من الرأس الى الذنب . ويصير داخل الجلد هو الخارج

وكذلك جميع الحيوان المحزز الجسد ، وكل طائر الجناحه غلاف مثل الجعل والدبور . وكذلك السرطان يسلخ ايضاً فيضعف عند ذلك عن المشي

والسلخ يصيب عامة الحيوان . اما الطير فتحسيرها (١) . واما ذوات

---

(١) تحسيرها من حسّر الطائر : سقط ريشه

الحافر فسلخها عقائقها (١ ؛ وسلخ الأيائل القاء قرونها ؛ وسلخ الاشجار إسقاط ورقها . والاسروع دويبة تنسلخ فتصير فراشة . والدعموص ينسلخ فيصير إما بعوضة واما فراشة

وزعم ثمامة عن يحيي بن برمك ان البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة ؛ والنمل تحدث لها اجنحة ، ويتغيّر خلقها ، وذلك هو سلخها ، وهلاكها يجيء عند طيرانها . والجراد ينسلخ على غير هذا النوع

اختلاف تأثير العضّ واللدغ

قال : وعضّ السباع ، ذوات الاربع ، ولدغ الهوامّ يختلف بقدر اختلاف البلدان . كالذي يبلغنا عن افاعي الرمل ، وعن جرّارات قرى الأهواز ، وعقارب الصين ، وثعابين مصر . و الرتيلات ، وارتيلات ؟ . يقتل

وقال صاحب المنطق : ويكون في البلدة التي تسمّى باليونانية «طبقون » حية صغيرة شديدة اللدغ . إلّا ان تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك . ولم افهم هذا ، ولِمَ كان ذلك !

معلومات عن بعض الحيوانات

قال : والأيل اذا القى قرونه علم انه قد القى سلاحه ، فهو لا يظهر . وكذلك ان سمن علم انه يُطلب ، فلا يظهر . وكذلك اول ما ينبت قرنه يعرّضه للشمس ليصلب ويجفّ . وان لدغت الأيّلَ حيةٌ

(١) عقائق : ج . عقيقة : شعر كل مولود من الناس والبهائم .

أكل السراطين . فلذلك نظنّ ان السراطين صالحة للّديغ من الناس

والدبّة ، اذا هربت ، دفعت جراها بـين يديها . وان خافت على اولادها غيبتها ، واذا أُلحقت ، صعدت في الشجر ، وحملت معها جراها

قال : والتمساح يفتح فاه اذا غمّه ما قد تعلق باسنانه ، حتى يأتي طائر فيأكل ذلك . فيكون طعاماً له وراحةً للتمساح

قال : واما السلحفاة فانها اذا اكلت الافعى أكلت صعترًا جبلياً . وقد فعلت ذلك مرارًا فربما عادت فأكلت منها ، ثم أكلت من الصعتر مرارًا كثيرة . فاذا اكثرت من ذلك هلكت

قال : واما ابن عرس فانه اذا قاتل الحية ، بدأ بأكل السذاب لان رائحة السذاب مخالفة للحية . كما ان سامّ ابرص لا يدخل بيتاً فيه زعفران

وزعم ان القنافذ لا يخفى عليها شيء من جهة الريح وتحوّلها وهبوبها . وانه كان بقسطنطينية رجل يقدَّم ويعظَّم ، لانه كان يعرف هبوب الريح ، ويُخبِر بذلك . وانما كان يعرف الحال فيها بما يرى من هيئة القنافذ

ذكر العيون

والعيون الحُمر للعَرَض المفارق (١ كعين الغضبان ، وعين السكران ، وعين الكَلِب ، وعين الرَمِد . والعيون التي تسرج بالليل عيون الأَسد ، وعيون النمور ، وعيون السنانير ، وعيون الافاعي . قال ابو حيّة :

غضاب يثيرون الذحول عيونهم كجمر الغضا ذكّينه فتوقّدا ! (٢

---

١) المراد : ان العيون تحمرّ موقتاً بسبب عارض لا يلبس ان يفارق صاحبه .

٢) الذحول : ح . الذَحل : الثار ، العداوة ، الحقد .

وقال آخر :

ومدَّجٍ يسعى بشكّته محمرّة عيناه كالكلبِ !

رجع بالكلب الى صفة المدّجج

وقال معاوية لصحار العبدي: « يا أحمر ! » قال: « والذهب أحمر ! » قال: « يا ازرق ! » قال: « والبازي ازرق » (١ وأنشدوا :

ولا عيب فيها غير شُكْلَة عينها كذاك عتاق الطير شُكْلٌ عيونها (٢

ومن العيون المُغرب ، والأزرق ، والأشكل ، والاصحر (٣ ، والأشهل (٤ ، والأخيَف (٥ ، وذلك اذا اختلفا . وعين الفارة كحلاء ، وهي أبصر بالليل من الفرس والعقاب



---

١) راجع ابن عبد ربه : العقد الفريد — في الروائع الجزء ٩ ، ص : ٧١ .

٢) الشُكْلَة : في العين : حمرة تكون في بياضها .

٣) الأصحر : صفة ما كان لونه اغبر ، في حمرة خفيفة ، الى بياض قليل .

٤) الأشهل : ذو الشُهلة وهي : حُمرة في سواد العين .

٥) الأخيَف : ذو الخيَف ، وهو : زرقة احدى العينين وسواد الأخرى .

فهرس

الجاحظ

كتاب الحيوان

٣

الذرة والنملة — الذباب

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد أفرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٨

الجاحظ

٧٧٥؟ - ٨٦٩

« كتب الجاحظ تعلّم العقل اولًا ، والادب ثانياً ! »

(ابن العميد)

الرجل

وُلد ابو عثمان عمرو بن بحر في البصرة نحو السنة ٧٧٥ . وكان من موالي كنانة ، بَشِع المنظر ، نأتئ العينين ، فلُقّب بالجاحظ . على انه كان قوي الحافظة ، دقيق الذكاء ، سريع الفهم ، فرعب في الدرس ، وقرأ على النحاة واللغويين في البصرة ؛ ثم ارتحل الى بغداد ، دار العلم اذ ذاك ، فتتلمذ لابراهيم بن سيّار البلخي المعروف « بالنظام » ، واخذ عنه الشيء الكثير من مبادئ المعتزلة ، واساليب الفلاسفة .

ولم يلبث الجاحظ ان بدأ بنشر التآليف في جميع الفنون . وكان في اول امره ينسب كتبه الى المشاهير من كتّاب الاقدمين كابن المقفّع حتى تسير بين الناس ، وتنال اعتبارهم ؛ فنجح في طريقته . واذ عرف القوم اسمه ، نال شهرة واسعة ، حتى ان المأمون طلبه ، وامتدحه ، وصدّره في ديوان الرسائل . ولكن الجاحظ استعفى بعد ثلاثة ايام فأُعفي

ثم اتصل بمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيّات ، من اشهر ساسة

ذاك العصر، فأكرمه. ولما صار ابن الزيّات وزيراً للخليفة الواثق سنة ٨٣٥، بلغ كوكب الجاحظ اقصى درجات اللمعان. غير ان هذا اللمعان لم يدم طويلاً لان عدوّ ابن الزيّات، القاضي احمد بن ابي دوّاد، انتصر عليه لما بويع بالخلافة للمتوكل سنة ٨٤٧، وهو عدوّ الحرية الفكرية والمعتزلين. فهرب الجاحظ واقام مدّة مختفياً خائفاً حتى امّنه ابن ابي دوّاد، وطلبه. فاقام في حاشيته وحاشية وَلده حتى سنة ٨٥١

وكان اضطهاد المتوكل لاصحاب الآراء الحرّة يزداد يوماً فيوماً، ومرضُ الجاحظ يقوى عليه، فترك بغداد وانقطع في بيته بالبصرة، يرقب الحركة الادبية والسياسية، ويزوره الادباء العديدون. فيفكّهم بذكر فالجه، ويمازحهم بطرق معيشته؛ فيرجعون معجبين، الى ان كانت سنة ٨٦٩ فانطفأ ذاك السراج.

اما اخلاق الجاحظ فاخصّها الظرف والفكاهة، وعدم الاكتراث للامور، وان مهمّة؛ وحب التهكّم على كل شيء، ولو ادّاه ذلك الى ما لا تُحمد عقباه. هي غريزة الظرف رافقته في كل اعماله فصبغتها جميعاً بصبغة اللطف وخفة الروح. وقد توسّعنا في حوادث حياته، ومرضه، واعماله، واخلاقه في الجزء الثامن عشر من الروائع، فليراجع ذلك من اراد



المفكر

مؤلفاته

نسب الى الجاحظ كتبٌ كثيرة ذكر منها ياقوت نحو ١٢٥ بين رسالة وكتاب . وقد طبع منسوباً له ، في الشرق والغرب ، ١٣ مؤلفاً ثبت منها بالتحقيق تسعة اشهرها كتاب « البيان والتبيين »، و « كتاب الحيوان » وسيأتي الكلام عليه

آراؤه

رأينا في مقدمة الجزء السابق ، ان الجاحظ كان مبدئيا من المعتزلة ، اتباع الفلاسفة الطبيعيين، وانه، فرعياً، انفرد عنهم ببعض امور فألّف مذهباً خاصاً دعي « بالجاحظية ». ثم توسّعنا في شرح مبادئ هذا المذهب وآرائه فليراجعها من شاء

اما من حيث الاجتماع والاخلاق فقد كانت فكاهة الجاحظ الفطرية تدفعه الى التهكم على كل شيء ، فأعمل يراعه في نقد مختلف الطبقات ، فضحك وأضحك

في العلوم : كتاب الحيوان

ان رغبة الجاحظ في الاحاطة بالمعلومات جميعها ، وعقليته الشاملة التي اكسبته بحقٍ صفة اصحاب الموسوعات ، دفعتاه الى الكتابة في كل

المعارف البشرية . فخاض شتى الابحر ولم يتراجع امام موضوع سواء اتقنه او لم يتقنه . وكان كلما ازداد سعة نقص تعمقاً حتى عرّض نفسه لنقد الاختصاصيين . ومنهم المسعودي الذي كثيراً ما استفاد من الجاحظ؛ ومع ذلك فانه لم يتمالك من نقد معلوماته الجغرافية ، وهو علم لم يتقنه كاتبنا ، لانه « لم يسلك البحار ، ولا اكثر الاسفار ، ولا تقرّا الممالك والامصار » (١ فوقع في مغالط عديدة . وكان من افكهها ، وهي حقيقة بالجاحظ وبعقليته ، انه قرّر ان نهر مهران السند (اي الهندوس) مصدره نيل مصر ، واستدلّ على ذلك بوجود التماسيح فيه . . . الى غير ذلك من التحقيقات السطحية التي اشتهر بها الجاحظ

على انه ، وان قصّر في وصف البلاد الجغرافي ، لم يقصّر في وصف المدن الكبيرة ، واهلها ، وطريقة معيشتهم ؛ ككلامه ، في كتاب البلدان ، عن مكة ، والمدينة ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة ، ودمشق وغيرها

وقد ألحق بذلك مباحث في الفرق بين الشعوب المختلفة ، لا من حيث الاخلاق فحسب كما ذكرناه ، بل ايضاً من حيث النشأة الطبيعية والفوارق الظاهرة ، فألّف في « السودان والحُمران » و « الصرحاء والهجناء » و « الرجال والنساء » وفي اي موضع يغلبنَ ويفضلنَ وفي اي موضع يكنّ المغلوبات والمفضولات . . . وكان من متممات الجغرافية البشرية ان يبحث في معتقدات البشر ، فذكر الاديان وتشعباتها ، والهياكل وما يُعبد فيها من الآلهة المختلفة على شكل الاوثان والاصنام والدُمى في شرح طويل .

---

١) المسعودي : مروج الذهب — الجزء الاول — ص : ٢٠٦ — ٢٠٧

وتجاوز درس الارض ، من حيث الجغرافية الطبيعية والبشرية ، الى درس المحصولات ، من حيث الجغرافية الاقتصادية ؛ فكتب في المعادن العديدة ، وجواهر الارض واصباغها ، والكيمياء وما اليها . ثم ارتقى الى النبات فتكلّم عن النخل والزيتون والاعناب ومختلف الزرع . وكان من الطبيعي ان يصل الى الحيوان ، فذكره وخصّ به ذاك الكتاب الكبير الطريف الذي نشتغل فيه اليوم :

كتاب الحيوان

ماهيته — طبعه

كتاب الحيوان مجموعة كبيرة انشأها الجاحظ في سبعة مجلّدات واهداها الى محمّد بن الزيّات . وغايته جمع ما تفرّق في الكتب ، وما انتشر على الألسنة من الاقوال والأحكام والامثال والاشعار عن الحيوانات وعلاقاتها مع الانسان . وقد طُبع الكتاب كله في سبعة اجزاء تبلغ ١٠٨٩ صفحة كبيرة، في مصر سنة ١٣٢٣—١٣٢٥هـ . (١٩٠٥—١٩٠٧) على نفقة الحاج محمد الساسي المغربي ، ووقف على تصحيح الجزءين الاخيرين محمد بدر الدين النعساني الحلبي . على ان في هذه الطبعة من التصحيف ، والتحريف ، والإسقاط ، وعدم اقامة وزن الابيات ، والاغلاط المطبعية ، وإبدال الاسطر، ما يقف في سبيل الدارسين عقبة كؤوداً يزيدها صعوبةً أنّ الجاحظ لا يأبه للترتيب والتقسيم، ولا يتكلّف، كما في سائر مؤلفاته، كتابة عناوين للابحاث والفصول؛ اللهمّ بعض العناوين

العامّة للابواب الشاملة. وهذه ايضاً لا يراها المطالع الا في اول الكلام ، وكثيراً ما لا تنطبق على الباب برمّتـه . اذاً يدرك المطالع الجهد الذي بذلناه في اختيار هذه المنتخبات التي نقدّمها له مرتبةً مشروحة. وقـد توخّينا الفائدة في الاكثار من العناوين ، وتنويعها ، وتعميمها حتى الابحاث الاعتراضية ، وكثيرة ما هي . ولكي لا نحرمه الاطّلاع على محتويات سائر الاجزاء رأينا ان نلخّص ادناه المجلّدات السبعة ، بعـد ان نذكر مصادر الكتاب ، راجين ان يقوم من يعيد النظر في هذا المؤلّف ويعرضه على النسخ الخطية ، ثم يطبعه طبعة جديدة علمية نقديّة فيؤدّي خدمة عظيمة للجاحظ وللآداب العربية

مصادره

كثيراً ما يذكر الجاحظ في كتابه ارسطو ، ويستند الى اقواله في الحيوانات حتى اتّهمه بعض اعدائه بالنقل ، فقال البغدادي : « وقد سلخ فيه معاني كتاب الحيوان لارسطاطاليس . » (1 على ان من يدرس الكتاب حقّ الدرس يعجب اذ يرى ضعف التأثير اليوناني فيه ، ولاسيا تأثير ارسطو ، ويتحقق ان كثيراً من تلك المنسوبات لارسطو هي مرويّات إمّا ان يكون رآها الجاحظ في كتب منحولة للفيلسوف الكبير ، وامّا ان يكون الّفها من عنده ونسبها الى غيره ، ليجعل لها قيمة القِدَم وقيمة الاجنبيّة ، جرياً على ما هو معروف من عادته في ذلك

وهناك مصادر عديدة للكتاب اخصّها ما ورد في القرآن والحديث

---

1) راجع الروائع : جزء ١٨ ، ص : ك .

عن الحيوانات التي يذكرها ، وما جمعه الادباء والرواة قبلـه من حكم العرب وأشعارها في منافع الحيوان وصلته بالانسان . ويجب ألّا ننسى ملاحظات الجاحظ الخاصّة وآراءه الشخصية،وهي تؤلف قسماً لا يُستهان بهِ من حيث الدقة في القراءة، والإصابة في الأحكام

اقسامه

من العبث ان يحاول المطالع ايجاد تقسيم مرتّب، معقول ، لكتاب الحيوان. وهو أمر لا نستغربه بعد ان عرفنا عقليّة الجاحظ . اما من حيث الظاهر فيبدو الكتاب مقسماً كما يلي :

الجزء الاول

فيه ١٩٦ صفحة،يبدأها الكاتب بمقدمة طويلة، يردّ في اوّلها على من انتقد كتبه السابقة . وهي ذات قيمة لانها تطلعنا على القسم الكبير من مؤلفات الجاحظ قبل كتاب الحيوان . ثم ينتقل الى ذكر منفعة الكتب على الجملة . فيأتي بتلك المعلومات الوافرة،والآراء القيّمة في الخطّ والشعر والآثار، التي يراها المطالع في الجزء الثامن عشر من« الروائع ». ثم يعرض ملحوظات عامّة عن الانسان والحيوان ، ويبدأ القسم الاكبر من كتابه اي المناظرة بين الديك والكلب

الجزء الثاني

فيه ١٣٥ صفحة،يخصّها المؤلف بمتابعة تلك المناظرة ، ويخلّلها باحاديث وحكايات وحوادث غريبة عجيبة عن كثير من الحيوانات والطيور

الجزء الثالث

فيه ١٦٨ صفحة، نحو التسعين منها مخصَّصة لذكر الحمام يتخلّلها وصف من يشتهر بصدق الظنّ ، والمديح بالجمال ، والغضب والجنون ، والفطن والفهم ، وخصال الحَزم . ثم يفرد الكاتب باباً للذبّان ، وقد انتخبنا منهُ شيئاً في هــذا الجزء من « الروائع » ، وباباً للغربان ثم للجعلان ، والخنافس ، والهدهد ، والرخم ، والخفّاش

الجزء الرابع

فيه ١٥٦ صفحة ، يبحث في أكثرها عن الذرّ ، وقد انتخبنا منــه شيئاً في اول هذا الجزء ، والقرد ، والخنزير ، والحيَّات ، وقد خصَّصنا بها الجزء الثالث من « الروائع » ، والظليم . ثم يبدأ البحث في « النيران وانواعها عند العرب والعجم وفي الديانات وغيرها . »

الجزء الخامس

فيه ١٧٥ صفحة . يتابع في اوله الكلام عن النيران ثم ينتقل الى شرح الآية في « الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً » . ثم يذكر الالوان واختلافها، والماء ومفعوله ، ثم يعود الى النيران . وبعد ذلك يفرد باباً لمدح « النصارى ، واليهود ، والمجوس ، والأنذال ، وصغار الناس » ولـــذمّ الأماني . وكأنه يشعر انهُ لم يذكر شيئاً عن «الحيوان » فيعوّض عن سكوته ويخصّص ما بقي للكلام عن اجناس الطير التي تألف دور الناس ، وعن الفار ، والجرذان، والسنانير، والعقارب ويستطرد الى ذكر « فضيلة السنّور على جميع اصناف الحيوان ما خلا الانسان . » ثم يذكر الحيوانات الآتية : القمل ، الصؤاب ، البقّ والجرجس ومــا شاكل ، العنكبوت ، النحل ،

القراد ، الحبارى ، الضأن والمعز ، الضفادع . وبعد ان يحدّد الفرق بين الانسان والبهيمة ، والانسان والسبع ، يكتب فصلًا في القطا . ويختم بذكر نوادر وأشعار واحاديث

الجزء السادس

فيه ١٧٥ صفحة . يلخِّص في اوله كلّ ما ورد في الاجزاء السابقة . ثم يتكلّم عن الضبّ وصفاته،ويبدأ بتفسير قصيدة البهراني في الحيوانات، وقصيدة بشر بن المعمر في الموضوع نفسه تفسيرًا يجاوز الثمانين صفحة يذكر في خلاله من ادّعى من الشعراء انهم رأوا الغيلان وسمعوا عزيف الجن . وبعد ان يبحث قليلًا في الارانب، يورد اشعارًا كثيرةً في السباع والوحش والحشرات ، وينتقل الى ذكر الثأر عند العرب ، والجبن ، ووهل الجبان ، ثم يتكلم عن الورَل والفهد. ويختم بنوادر واشعار واحاديث

الجزء السابع

هو اصغر الاجزاء وفيه ٨٤ صفحة . يبدأها بإحساس اجناس الحيوان، وبالامثال الواردة في ذلك . ثم يؤيد نظريته العامّة وهي « ما يستدلّ به في شأن الحيوان على حسن وضع الله وأحكامه وتدابيره . » وينهي بذكر ذوات الظلف ، والزرافة

غرضه — قيمته

على المطالع ان يستنتج من هذه الاخلاط ايّ عبثٍ كان يدفع الجاحظ الى الانتقال من موضوع الى آخر، ومن حكم الى شعر، ومن آية قرآنية الى نادرة مضحكة . ويقرن هذا الى مفاعيل تلك الذاكرة الغريبة ، وتلك

التنشئة الادبية المتينـــة ، وذاك الاسلوب الانشائي الشائق ، فيعلم مبلغ الكتاب من اللذّة والفائدة . من اللذّة اولًا لان الجاحظ لم يكتب قط ليفيد بل ليسلّي . واذا كان ثمّ فائدة فانها تأتي عن طريق اللذة ، وأكاد اقول عن غير قصد من المؤلف

على ان ذاك العبث بالتأليف ، والاختــلاط في الافكار، لم يكن ليمنع الجاحظ من غاية يسير اليها ، وغرض يرمي اليه في كتاب الحيوان خاصةً . ونحن اذا ما تدبّرنا بالروية اكثر فصوله ، رأينا اجتهادًا متواصلًا في تبيان قدرة الخالق عزّ وجلّ ، وفي البرهان على ان الحيوانات الضخمة لا تفوق الحشرات الصغيرة في الدلالة على حسن صنع مسيّر هذا الفلك واحكامه وتدابيره . فهو ينال من هذا القبيل شيئاً لا يُستهان بــه من الفلسفة الكلامية ، وشرح عجائب المخلوقات . وفضلًا عن ذلك فــان المطالع يرى في تضاعيف هذه المجلدات مبادئ اولية بسيطة دون شك ، ولكنها حقيقية، لكثير من النظريات العصرية عن ترقي الحيوانات، وتبليدها اي قبولها لمناخ الاقليم الموجودة فيه ، ودرس اخلاقها وعلاقــاتها مع البشر خاصةً . بيد ان حبّ الحقيقة يوقفنا هنا، ويمنعنا عن التهوّر والاندفاع الى القول ان الجاحظ كان من سلفاء علماء الحيوان المتهورين في القرن التاسع عشر ، كما اراد بعض المتحمسين ان يضعوه ، فنسبوا اليه ما هو براء منه، وحطّوا من معارفهم في العلم والادب

الكاتب

ن كان المراد بالكاتب من اذا شاء طَرْق موضوع، فكّر فيه طويلاً فاختطَّ لنفسه غايةً واضحة ، ورسم تقسيماً جليًّا متسلسلاً، ثم سار عليه مرتقياً من فكر الى آخر، ومنتقلاً من مقدّمة الى نتيجة ، لا يحيد عن التقسيم ، ولا يتعدّى الغاية ؛ فقد خسر الجاحظ دعواه واضاع لقب « الكاتب ». وان كان المراد بالكاتب المُنشئ المتضلّع من اللغة ، العارف بمواقع مفرداتها ، الحافظ تراكيبها المدرسية ، مَن اذا رغب في التعبير عن فكر عادي ، اخذ يرصف الالفاظ فيحذف ، ويقدّم ، ويؤخّر، وينمّق ، حتى يضحّي المعنى في سبيل اللفظ فيُبرز جملةً متينة السبك ، موجزة الكلام ، موسيقية الوقع ، وان جافّة فارغة ، فقد خسر الجاحظ دعواه ثانيةً وكان ابعد من ذي قبل عن صفة « الكاتب »

اما اذا اردنا بالكاتب ذاك المؤلف الذي يجبرك على مطالعته ، ويجذبك الى مجالسته، والاصغاء اليه، ولو حدّثك عن اتفه الامور وابسط المواضيع ، فليهنأ الجاحظ بلقبه وليتبوأ عرش الآداب في مقدمة كتّاب نعربية

لا عبرة بكل ما في انشاء الجاحظ من مراجعات معالي ، وترديد ألفاظ ، وخلط في الاقسام ، وخروج عن الموضوع ، ما دمنا حدّدنا المراد بالكتابة ، اذا ما تكلّمنا عن الجاحظ . ولا عبرة ايضاً بما في تعابيره من الحدّة والخروج عن الاساليب الموجزة المتينة . وهو لو بقي متّبعاً اياها

لما وصلت الجملة العربية الى تلك السهولة والمرونة واحتواء المعاني الدقيقة التي اوصلها اليها الجاحظ

هذا فضلًا عن الفكاهة الفطرية التي اشرنا اليها غير مرّة في هذا البحث ، والتي وسمت كل انشاء الجاحظ بتلك السمة الخاصة فرفعته عن الانشاء المدرسي المعروف في جملة ابن المقفع وسهل بن هارون ، دون ان تحطّه عنهما من حيث البلاغة ودقّة التعبير

واي شيء ادلّ على روحه الخفيفة وظرفه الجذّاب من تلك الانتقالات السريعة من الجدّ الى الهزل ، او بالعكس ؛ والاستنتاجات غير المنتظرة في موضع يعدّه المطالع مهمًّا فيعرضه له الكاتب قابلًا لكثير من الدعابة والعبث . فهو بينا يظهر محدّدًا تحديدًا علميًّا ما يُعتبر طيرًا وما ليس بطير فيقول : « وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير . قد يطير الجُعلان ، والذباب ، والزنابير . . . وغير ذلك ولا يسمّى بالطير . . . » اذا به لا يتمالك من ايراد النكتة فيردف : « وجعفر بن ابي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنّة حيث شاء ، وليس جعفر من الطير . . . » ثم يعود الى الرزانة العلمية فيتابع : « واسم طائر يقع على ثلاثة اشياء : صورة ، وطبيعة ، وجناح » . ولا يكاد يذكر السنور وشبهه بالاسد ، حتى يجتهد في شرح اصل هذه المشابهة ، فلا يخطر على باله الا خرافة مضحكة ، لا يتردّد دقيقة في ذكرها واسنادها الى المفسّرين ، فيقول : « زعم بعض المفسّرين واصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذّوا بالفار . فعطس الاسد عطسةً فرمى من منخريه بزوج سنانير ؛ فلذلك السنّور اشبه شيء بالاسد . وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل . » ولا يكتفي بهذا حتى

يشرح تلك الحادثة عن لسان كيسان ، ومن المعلوم المشهور مجون كيسان ودعابته ، فيُردف : « قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنّور آدم السنانير وتلك السنورة حوّاءها . » الى آخر ذلك من النكت وهي وافرة لا تخلو منها صفحة من كتبه جميعها

وقد يرافقه هذا الروح الهزلي في تصوير الاخلاق فيسمو به الى الإبداع كما في كتاب « البخلاء » ، واني لواثق انه لو عرف العرب فن التمثيل في ذاك العصر ، لما كان الجاحظ في « بخلائه » اقلّ دهاء في اختيار المشاهد ، ودقّة في التصوير ، وفكاهة في التعبير من موليير في « بخيله »

واذا اضفنا الى ذلك تعقّل كاتبنا ورزانته عند اللزوم ، وقريحته السيّالة ، وتقاطر الالفاظ الموافقة ، عفواً ، من شقّ قلمه ، مع التوازن في الجملة الذي اكتسبه من استاذه في الانشاء الادبي ابن المقفع ، ادركنا سرّ ذاك النفوذ الذي ناله ، وعمق ذاك التأثير البعيد الذي احدثه في الاسلوب العربي مدة طويلة . على اننا نأسف جدّ الاسف ان يكون ادباء القرن التاسع عشر نسوا او كادوا مركز الجاحظ في الآداب ، وقدّموا عليه كثيراً من الكتّاب غير المستحقّين . ولعلّ عذرهم في ذاك ان كتب اديبنا لم تكن مطبوعة معروفة . اما اليوم وقد طُبع الشيء الكافي منها ، فقد آن للجاحظ ان يسترجع مكانته العالية ، وان يُعدّ بحق إمام الانشاء العربي

هكذا يجب ان نقدر الجاحظ ! وهكذا قدره كبار الادباء في العصور العبّاسية كما يظهر في حكم ابن العميد الصائب الذي صدّرنا به هذا الدرس والذي نحن به خاتمونه :

قال ابو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ ابي الفضل بن العميد

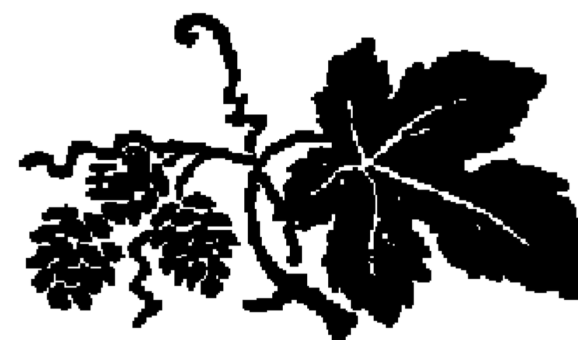
الوزير. فجرى ذكر الجاحظ فغضّ منه بعض الحاضرين وازرى بـه ، وسكت الوزير عنه . فلما خرج الرجل قلت له : « سكتّ ايها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله ، مع عادتك في الردّ على امثاله . » فقال : « لم اجد في مقابلته ابلغ من تركه على جهله . ولو واقفته وبيّنت له ، لنظر في كتبه وصار بذلك انساناً ، يا ابا القاسم ، فكتب الجاحظ تعلّم العقل اولًا والادب ثانياً . ولم استصلحه لذلك » (١

مآخذ

يُضاف الى ما ذكر في آخر مقدّمة الجزء الثامن عشر :

عبد القادر البغدادي : الفَرق بين الفِرَق ، وبيان الفرقة الناجية منهم — طبعة محمد بدر — مصر ، ص : ١٦٠—١٦٣

محمد الشهرستاني : كتاب الملل والنحل — طبعة Cureton — ليبسيك ١٩٢٣ ، ص : ٥٢ — ٥٣



---

١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ؛ ج : ١ ، ص : ٤٩١ — وياقوت : ارشاد الاريب ؛ ج : ٦ ، ص : ٧٤

كتاب الحيوان



٣

الذرّة والنملة – القرد



الذرّة والنملة



نبدأ في هـذا الجزء (١) بعون الله وتأييده، بالقول في جملة الذرّة والنملة، كما شرطنا به آخرَ المصحف الثالث، ولا حول ولا قوة الّا بالله العلي العظيم

العِبرة في خلق الذرّة

قد علمنا ان ليس عند الذرّة غناء الفرس في الحرب، والـدفع عن الحريم. ولكنا، إذا اردنا موضع العجب والتعجيب، والتنبيه على التدبير، ذكرنا الخسيس القليل والسخيف المهين، فأرينـاك ما عنده من الحسّ اللطيف، والتقدير الغريب، ومن النظر في العواقب، ومشاكلة الإنسان ومزاحمته. والانسان هو الذي سُخّر له هذا الفلك بما يشتمل عليه

حكمتها في ادّخار الحبوب

وقد علمنا أنّ الذرّة تدخر للشتاء في الصيف، وتتقدّم في حال المهلة، ولا تضيّع اوقات امكان الحزم. ثم يبلغ تفقّدها، وحسن خبرها، والنظر في عواقب امرها، أنها تخاف على الحبوب التي ادّخرتها للشتاء في الصيف، أن تعفّن، وتسوّس، ويقبلها بطن الأرض؛ فتخرجها الى ظهرها ليبسها،

---

١) هذا الجزء: هو المصحف الرابع من كتاب الحيوان .

ويُعيد اليها جفوفها ، وليضربها النسيم ، وينفي عنها اللَّخَن(١ والفساد . ثم ربما كان ، بل يكون ، اكثر مكانها نديًا ، وخافت ان ينبت بقرب موضع القِطْمِير (٢ من وسط الحبة ، وتعلم انها من ذلك الموضع تبتدئ ، وتنبت ، وتنقلب ، فهي تفلق الحبَّ كلّه انصافاً . فاذا كان الحبّ من حبّ الكزبرة ، فَلَقَتْه أرباعاً ؛ لان انصاف حبّ الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب . فهي ، على هذا الوجه ، مجاوزة لفطنة جميع الحيوان . حتى ربما كانت ، في ذلك ، أحزم من كثير من الناس

قوّة شمّها وجرأتها على حمل الاثقال

ولها مع لطافة شخصها ، وخفة وزنها ، في الشمّ والاسترواح ما ليس لشيء . وربما أكل الانسان الجراد او بعض ما يشبه الجراد ، فتسقط من يده الواحدةُ او صدرُ الواحدة ، وليس يرى بقربه ذرّة ، ولا له بالذرّ عهدٌ في ذلك المنزل . فلا يلبث ان تُقبل ذرّة قاصدة الى تلك الجرادة فترومها ، وتحاول قلبها ، ونقلها ، وجرّها . فاذا أعجزتها بعد ان بلغت عذرًا ، مضت الى جحرها راجعة . فلا يلبث الانسان أن يراها قد أقبلت ، وخلفها كالخيط الاسود الممدود ، حتى يتعاونَّ عليها فيحملنها

فأوّل ذلك صدق الشمّ لما لا يشمّه الانسان الجائع . ثم بُعد الهمّة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرّة واكثر من مائة

---

١) اللَّخَن : النتن ، الفساد .

٢) القِطْمِير : والقِطْمار : شقّ النواة ، القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة ، النكتة البيضاء التي ينبت منها .

مرّة. وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعفه مرارًا غيرها ، وعلى انها لا ترضى باضعاف الاضعاف الا بعد انقطاع الانفاس

فان قلت وما علم الرجل ان التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي أخبرت صُويحباتها من الذرّ ، وانها كانت على مقدَّمتهنَّ ! . قلنا : لطول التجربة ، ولأنّا لم نرَ ذرّة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ثم رأيناها راجعة ، إلّا رأينا معها مثل ذلك. وإن كنّا لا نفصل في العين بينها وبين أخواتها ، فإنه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا. وعلى اننا لم نرَ ذرّة قطّ حملت الينا شيئاً او مضت الى حجرها فارغة ، فتلقاها ذرّة ، الّا واقفتها ساعة وخبّرتها بشيء . فدلّ ذلك على انها في رجوعها عن الجرادة انما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب أهله

ما ورد عن النمل في القرآن

ومن العجب انك تُنكر أنها توحي الى أختها بشيء ، والقرآن قد نطق بما هو اكثر من ذلك أضعافاً

وقال رؤبة بن العجّاج (١ :

لو كنت عُلّمت كلام الحُكْلِ عِلمَ سليمانَ كلامَ النملِ ! (٢

وقال الله تعالى : «حتى إذا أتوا على وادِ النملِ ، قالت نملة : «يا أيها

١) رؤبة بن عجّاج : من اشهر الرُّجّاز ، اي نظّام الرجز ، في الإسلام. كان من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، يترك البصرة ويُحتجّ بشعره . مات في ايام المنصور. لهُ ديوان شعر طُبع ، مع ديوان ابيه ، في برلين ، سنة ١٩٠٣ ، بعناية المستشرق وليم بن الورد (Ahlwardt) .

٢) الحُكْل : ما لا يُسمع صوته من الحشرات ، كالذرّ .

النمل ، ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون». فتبسّم ضاحكاً من قولها ، وقال : «ربِّ ، أوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمتَ عليّ.» (١

فقد اخبر القرآن انها قـد عَرَفت سليمان ، فاثبتت عينه ، وانها علم منطقها عنده ، وانها أمرت صويحباتها بما هو أحزم وأسلم . ثم أخبر أنها تعرف الجنود من غير الجنود . وقد قالت : «وهم لا يشعرون » وتخالك ايها المنكر تشتبه بجـالهنّ انك لا تعرف قبل ذلك ان لها بياناً وقولًا ومنطقاً يفصل بين المعاني التي هي بسبيلها ، فلعلّها مكلّفة ومأمورة منهية ، ومطيعة عاصية . فأول ذلك ان المسألة من مسائل الجهالات ، وان من دخلت عليه الشبهة من هذا المكان لناقص الروية ، ودني الفكرة

وقرأ ابو اسحق قولَه ، عزَّ وجلَّ : «وحُشر لسليمان جنوده من الجنّ ، والإنس ، والطير ، فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على وادِ النمل .» (٢

فقال (٣ : كان ذلك الوادي معروفاً « بوادي النمل » فكأنه كان حمى ؛ فكيف يُنكر ان يكون «حمى النمل». ربما أجلت أمّة من الأمم عن بلادهم . ولقد سألت أهل كسكر (٤ فقلت : « شعيركم عجب ، وسمنكم عجب ، وجداؤكم عجب ، وبطّكم عجب ، ودجاجكم عجب ! فلو كانت لكم أعناب ! » فقالوا : «كل أرض كثيرة النمل لا تصلح فيها الأعناب .»

---

١) القرآن : (سورة ٢٧ [النمل] ١٨–١٩)
٢) القرآن : (سورة ٢٧ [النمل] ١٧–١٨)
٣) فقال : الضمير لابي اسحق القارئ .
٤) كسكر : كورة خصبة بين الكوفة والبصرة كانت عاصمتها واسط

ثم قرأ : « قالت نملة : « يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم . » فجعل تلك الحجرة مساكن والعرب تسمّيها كذلك

ثم قال : « لا يحطمنكم سليمان . . . » فجمعت من اسمه وعينه ، وعرفت الجند من قائد الجند

ثم قالت : « وهم لا يشعرون » فكانوا معذورين ، وكنتم ملومين ، وكان اشدَّ عليكم . فلذلك قال (١ : « فتبسّم ضاحكاً من قولها . » لما رأى من غورها وتسديدها ومعرفتها . فعند ذلك قال (٢ : « ربِّ أوزعني أن اشكر نعمتك التي انعمتَ عليَّ ، وعلى والديَّ ، وأن اعمل صالحاً ترضاه ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين . »

قال : ويُقال : ألطف من ذرَّة ! واضبط من نملة

والنملة ايضاً قُرحة تعرض للساق ، وهي معروفة في جزيرة العرب

قال : ويُقال : أنسب من ذرَّة . فاما قوله :

« لو يدبَّ الحوليُّ من ولـد الذ رِّ عليها ، لأندَبَتْها الكلومُ (٣

فان الحوليَّ منها لا يُعرف من مسكنها . وانما هو كما قال الشاعر :

تلقّط حوليَّ الحصا في منازلٍ من الحيِّ امست بالحبيبين بلقعا

قال : وحَوليّ الحصا صغارُها ، فشبّهه بالحوليّ من ذوات الاربع

ما ورد عن النمل في الحديث

(حدث) ابن جُرَيج ، عن ابن شهاب ، عن عبيد الله ، بن عبد الله

---

١) قال : الضمير للقرآن . ٢) قال : الضمير لسليمان .

٣) أندَب الجرح : صلب أثره في الجسم . الكلوم : الجراح .

ابن عتبة ، عن ابن عباس أن رسول الله (صلعم) قال : « من الدوابّ اربع لا يُقتَلنَ : النملة ، والنحلة ، والصُرَد (١) ، والهُدهُد (٢) . »

(حدث) عبد الله بن زياد المدني قال : انبأنا ابن شهاب ، عن ابي سلمة بن عبد الرحمن ، عن ابي هُرَيرَة قال : سمعت رسول الله (صلعم) يقول : « خرج نبي من الانبياء بالناس يستسقون ، فاذا هم بنملة رافعة رأسها الى السماء . فقال ذلك النبي : « ارجعوا فقد استُجيب لكم من اجل هذا النمل ! »

(حدث) مسعود بن كدام قال : حدثنا زيد القمي ، عن ابي الصديق الباجي ، قال : « خرج سليمان بن داود ، عليهما الصلاة والسلام ، يستسقي ، فرأى نملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها الى السماء ، وهي تقول : « اللهمّ ! إنا خَلق من خَلقِك ليس بنـا غِنى عن سقيك . وإما أن تسقينا وترزقنا ؛ وإما أن تميتنا وتهلكنا ! » فقال : « ارجعوا ، فقد سُقيتم بدعوة غيركم ! »

سادة النمل

قال ابو الجهجاه : سألتُ ابا عمرو المكفوف عن قول ابي موسى : « إنَّ لكل شيء سادةً حتى الذرّ . » قال : « يقولون ان سادتها اللواتي

---

١) الصُرَد : طائر أبقع ، ابيض البطن ، اخضر الظهر ، ضخم الرأس والمنقار له مِخلب يصطاد العصافير وصغار الطير . ويسمّى ايضاً « الأخيَل » لاختلاف لونه وهو مما يتشاءم به من الطير .

٢) الهُدهُد : طائر ذو خطوط وألوان كثيرة ، يبني افحوصه في الزبل فينتن ريحه .

يخرجن من الجحر يرتدنَ بجماعتها ، ويستبقنَ الى شمّ الـذي هو من طعامهنَّ . »

اقوال بعض العلماء

يقال : في لسانه حُبسة ، اذا كان في لسانه ثقل يمنعه من البيان . فاذا كان الثقل الذي في لسانه من قبل العجمية ، قيل : في لسانه حُكلة . والحُكل ، من الحيوان كلّه ، ما لم يكن له صوت يُستبان باختلاف مخـارجه عند حرجه وضجره ، وطلبه ما يغذوه ، او عند وعيد اقتتال ، وغير ذلك من أمره .

سبب اختلاف صور الالفاظ

وتزعم الهند أن سبب ما له كثر كلام الناس ، واختلفت صور الفاظهم ، واتّسعت على قدر اتّساع معرفتهم ، ومخارج كلامهم ، ومقادير اصواتهم في اللين والشدّة ، وفي المدّ والقطع ، كثرةُ حاجاتهم . ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم ، وتصاريف الفـاظهم ، واتّسعت على قدر اتّساع معرفتهم . قالوا : فحوائج السنانير لا تعدو اربعة اوجه ، منها : صياحها اذا ضُربت ، ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اخواتها ، ولذلك وجه . وصياحها اذا دعت اولادها للطعم ، ولذلك صورة . وصياحها اذا جاعت ، ولذلك صورة . فلما قلّت وجوه المعرفة ، ووجوه الحاجات ، قلّت وجوه مخارج الاصوات . واصواتها تلك فيما بينها هو كلامها

وقالوا : ثمّ من الاشياء ما يكون صوتها خفيًّا ، فلا يفهمه عنها الا ما كان من شكلها ، ومنتهى ما يفهم صاحبه ، بضروب الحركات والاشارات والشمائل . وحاجاتها ظاهرة جليّة ، وقليلة العدد يسيرة . ومعها

من المعرفة ما يقصر عن ذلك المقدار ولا يجوزه. وراضة الإبل، والرعاة، ورواض الدوابّ في المروج، والسوّاس، واصحاب القنص بالكلاب والفهود، يعرفون باختلاف الاصوات والهيئات، والتشوّف واستحالة البصر والاضطراب، ضروباً من هذه الاصناف، ما لا يعرف مثله من هو أعقل منه، اذا لم يكن له من معاينة أصناف الحيوان ما لغيرهم. فالحكل من الحيوان هذا الشكل، وقد ذكرناه مرّة

التسمّي والتكنّي بالنمل والذرّ

وقد يسمّون «بنملة»، «ونُمَيْلة»، ويتكنون بها. وتسمّوا «بذرّ» واكتنوا «بابي ذرّ.» ويُقال: سيف في متنه ذرّ. وقال أوس بن حجر في صفة السيف:

كأنَّ مَدَبَّ النمل يتّبع الدَّبى ومدرج ذرّ خاف بردًا، فأسهلا(١
على صفحة من بعد حين جلائه. كفى بالذى أبلى وأنعت منصلا! (٢

بعض ما قيل في النمل

قال ابو العتاهية:

واذا استوت للنمل اجنحةٌ حتى يطيرَ، فقد دنا عطبُه!

وقال الله عزّ وجل: «فمن يعمل مثقال ذرّة خيرًا يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شرًّا يَرَه!» (٣

---

١) الدبى: صغار الجراد قبل ان يطير، النمل
٢) أنعت: حسن حتى يُنعَت اي يوصف.
٣) القرآن: (سورة ٩٩ [الزلزلة] ٧—٨)

قال: وقيل لعائشة (رضه)، وقد تصدّقت بحبة عِنب: «اتتصدّقين بحبة عِنب!» فقالت: «إن فيها لمثاقيل ذرّ!»

ومما قيل في الشعر من اللغز:

فما ذو جناحٍ له حافرٌ، وليس يضرّ ولا ينفعُ؟

يعني النمل. فزعم أن للنمل حافرًا. وانما يحفر جحره، وليس يحفره بفمه

ما يدّخر من الحيوان

قالوا: واجناس من الحيوان تدّخر وتشبّه في ذلك بالإنسان ذي العقل والروّية، وصاحب النظر في العواقب والتفكير في الامور، مثل الذرّ، والنمل، والفأر، والجرذان، والعنكبوت، والنحل. الا ان النحل لا يدّخر من الطعام الا جنسًا واحدًا وهو العسل..

النمل والذرّ

وزعم اليقطري أنك لو ادخلت نملة في جُحر ذرّ لأَكلَتها حتى تأتي على عامتها. وذكر انه قد جرّب ذلك

النمل والضباع

وقال صاحب المنطق ان الضباع تأكل النمل أكلًا ذريعًا. وذلك ان الضباع تأتي قرية النمل في وقت اجتماع النمل. فتلحس ذلك النمل بلسانها بشهوة شديدة، وإرادة قويّة

النمل والأرَضَة

قالوا: وربما أفسدت الأَرَضَة (١ على أهل القرى منازلهم، وأكلت

---

(١) الارَضَة: دودة بيضاء تبني على نفسها أزجًا شبه دهليز، لها مشفران تنقر بهما الخشب، والآجرّ، والحجارة.

كل شيء لهم . ولا يزالون كذلك حتى ينشبوا في تلك القرى النمل . فيسلّط الله ذلك النمل على تلك الأَرَضَة حتى تأتي على آخرها . وعلى ان النمل بعد ذلك سيكون له اذى ، الّا انه دون الأرضة تعدّياً . وما اكثر ما يذهب النمل ايضاً من تلك القرى حتى تتمّ لأهلها السلامة من النوعين جميعاً . وزعم بعضهم أن تلك الأرضة بأعيانها تستحيل نملاً ، وليس فناؤها لأكل النمل لها ؛ ولكن الأرضة نفسها تستحيل نملاً . فعلى قدر ما يستحيل منها يرى النقص في عددها ومضرّتها على الايام

ضرب المثل بالنمل

قال : وبالنمل يُضرب المثل ، يُقال : جاؤوا مثل النمل . والزنج نوعان : احدهما يفخر بالعدد ، وهم يسمّون : «النمل» . والآخر يفخر بالصبر وعظم الأبدان ، وهم يسمّون : «الكلاب»

هلاك النمل

قال : ومن اسباب هلاك النمل نبات الاجنحة له . وقد قال الشاعر :

واذا استوت للنمل اجنحةٌ حتى يطير ، فقد دنا عطبُه !

واذا صار النمل كذلك اخصبت العصافير لانها تصطادها في حال طيرانها

كيفية قتل النمل

وتُقتل بأن يُصبّ في افواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر ، ويُدسّ في افواهها الشعر . وقد جرّبنا ذلك فوجدناه باطلاً . انتهى !



الذّبان



مقدمة

بسم الله !

اوصيك ، ايها القارئ المتفهّم ، وايها المستمع المنصت المتصفّح ، ان لا تحقر شيئاً ابداً لصِغر جثته ؛ ولا تستصغر قدرَه لقلّة ثمنه .

ثم اعلم أن الجبَل ليس بأدلّ على الله من الحصاة. ولا الفلك المشتمِل على عالمنا هذا بأدلّ على الله من بدن الانسان . وان صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله. ولم تفترق الامور في حقائقها ، وانما افترق المفكّرون فيها. ومن اهمل النظر ، واغفل مواضع الفرق وفصول الحدود . ومَن قبل ترك النظر ، ومَن قبل قطع النظر من غير وجه النظر ، ومن قبل الإخلال ببعض المقدمات ، ومن قبل ابتداء النظر من جهة النظر ، واستتمام النظر مع انتظام المقدّمات ، اختلفوا . فهذه الخصال هي جماع هذا الباب ، إلّا ما لم نذكره من باب العجز والنقصان .

لا مخلوق دون نفع

فإياك ان تسيء الظنّ بشيءٍ من الحيوان لاضطراب الخَلق ، وتفاوت

التركيب ولأنه مشنوء[١] في العين ، او لأنه قليل النفع والرَدّ[٢] . فان الذي يُظَنّ انــه أقلها نفعاً لعلّه ان يكون اكثرها رداً ، إن لا يكون ذلك من جهة عاجل امر الدنيا ، كان ذلك في أجل ثواب الدين وعقابه ، فهما باقيان، ومنافع الدنيا فانية زائلة . فلذلك قُدّمت الآخرة على الاولى .

فاذا رأيت شيئاً من الحيوان بعيداً من المعاونة ، وجاهلاً لسبيــل المكاتفة ؛ او كان مما يشتدّ ضرره وتشتدّ الحراسة منه كذوات الانياب من الحيّات ، والذبّان ، وذوات المخالب من الأُسد ، والنمور ، وذوات الإبر والشعر من العقارب والدَبْر[٣] ؛ فاعلم ان مواقع منافعها من جهة الامتحان والبلوى ، ومن جهة ما اعدّ الله ، عزّ وجلّ ، للصابرين ، ولمن فهم عنه ، وعلم ان الاختيار والاختبار يكونان ، والدنيـا كلها شرّ صرف او خير محض ، فان ذلك لا يكون ، الا بالمزاوجة بين المكروه والمحبوب والمؤلم والملذّ ، والمحقَّر والمعظَّم ، والمأمون والمخوف . فاذا كان الحظ الاوفر في الاختيار والاعتبار ، وبهما يُتوسّل الى ولاية الله ، عزّ وجلّ ، والى كرامته ؛ وكان ذلك انما يكون في الدار المزوجة من الخير والشرّ ، والمشتركة المركّبة بالنفع والضرّ ، المشوبة بالعُسر واليُسر ؛ فليعلم موضع النفع في خَلق العقرب ، ومكان الصنع في خَلق الحيّة ؛ فـلا يحقرنّ الجرجس[٤] ، والفراش ، والذرّ ، والذباب . ولتقف حتى

---

١) مَشْنوء : اسم مفعول من شنأ : فلان فلانًا : أبغضه مع عداوة وسوء خُلق .

٢) الردّ : الرَيْع ، ما تنيله الضيعة او التجارة من الارباح .

٣) الدَبْر : جماعة النحل والزنابير .

٤) الجِرجِس : البعوض الصغار .

تتفكر في الباب(١ الذي رميتُ اليك بجملته ؛ فانك ستُكثر حمد الله ، عزَّ وجلّ ، على خَلق الهمج ، والحشرات ، وذوات السموم والانياب ؛ كما تحمده على خَلق الاغذية من الماء والنسيم .

فان اردتَ الزراية والتحقير والعداوة والتصغير ، فاصرف ذلك كله الى الجنّ والانس ؛ واحقر منهم كلّ من عمل عملًا من جهة الاختيار يستوجب به الاحتقار ، ويستحقّ به غاية المقت من وجه ، والتصغير من وجه .

الغاية من خلق الحيوانات الضارّة

فان انتَ ابغضتَ من جهة الطبيعة ، واستثقلتَ من جهة الفطرة ضربين من الحيوان : ضرباً يقتلك بسُمِّه ، وضرباً يقتلك بشدّة آشِره(٢) لم تُلَمْ . الا ان عليك أن تعلم أن خالقهما لم يخلقهما لذلك . وانما خلقهما لتصبر على اذاهما ، ولان تنال بالصبر الدرجة التي تستحقّ ان تنالها ؛ والصبر لا يكون الا على حال مكروه . فسواء عليك كان المكروه سبعاً وثّاباً او كان مرضاً قاتلًا ؛ وعلى انك لا تدري لعلّ النّزع والعلز(٣ والحشرجة أن يكون اشدّ من لذع حيّة وضغمة (٤ سبع . فلا يكون

---

١) الباب : اي هذا الباب وفيه الكلام عن الذبّان واجناسها .

٢) الآشِر : شوك يكون في ساقي الجرادة ونحوها ، وعقدة في رأس الذنب كالمخلب .

٣) العَلَز : القلق والهَلَع الذي يأخذ المريض عند الاحتضار .

٤) الضَغْمَة : العضّة دون النهش .

حرقة كحرق اللسع ، وألم كألم الدَهَق(١ ؛ فلعلَّ هناك من الكرب ما يكون موقعه من النفس فوق ذلك . وقد علمنا ان الناس يسمّون الانتظار لوقع السيف على العنق « جهد البلاء » ، وليس ذلك الجهد من شكل لذع النار ، ولا من شكل الم الضرب بالعصا .

فافهم ، فهّمك الله ، مواقع النفع كما يعرفهـا اهل الحكمة ، واصحاب الاحساس الصحيحة ؛ ولا تذهب في الامور مذهب العامّـة ، وقد جعلك الله تعالى من الخاصّة . فانك مسؤول عن هذه الفضيلة لانها لم تُجعلْ لعباً ، ولم تُترَكْ هملًا . واصرف بغضك الى مريد ظلمك ، لا يراقب فيك إلاًّ (١ ، ولا ذمّة ، ولا مودّة ، ولا كتاباً ، ولا سُنَّة . وكلّما زادك الله ، عزَّ وجلّ ، نعمةً ، ازدادوا عليك حنقاً ، ولك بغضاً . وفرَّ كلَّ الفرار ، واهرب كلَّ الهرب ، واحترس كلَّ الاحتراس، ممن لا يراقب الله ، عزَّ وجلّ ؛ فانهُ لا يخلو من احد امرين : إمّا ان يكون لا يعرف ربّه ، مع ظهور آياته ودلالاته ، وسبوغ آلائه وتتابع نعمائـه ، ومع برهانات رُسله ، وبيان كتبه ؛ وإمّا ان يكون به عارفاً ، وبدينه موقناً، وعليه مجترئاً ، وبحُرُماته مستخفّاً . فان كان بحقّه جاهلًا ، فهو بحقّك أجهل ، وله أنكر . وان كان به عارفاً ، وعليه مجترئاً ، فهو عليك أجرأ، وحقّك أضيع ، ولاياديك اكفر

---

١) الدَهَق : نوع من التعذيب يكون بأن توضع ساق المحرم بين خشبتين تُشدان عليها .

٢) الإلّ : العهد ، والحلف ، والجوار ، والقرابة

التخلُّص الى ذكر الذبّان

فاما خَلق البعوضة ، والنملة ، والفراشة ، والذرَّة ، والذباب ، والجُعلان ، واليعاسيب ، والجراد ، فإياكَ ان تتهاون بشأن هذا الجند ، وتستخفّ بالآلة التي في هذا الذرّ . فربّ أمة قد اجلاها عن بلادها النمل ، ونقلها عن مساقط رؤوسها الذرّ ، وأُهلكت بالفراد ، وجُرّدت بالجراد ، وعُذّبت بالبعوض ، وأفسد عيشها الذبّان . فهي جندٌ ، ان اراد الله ، عزّ وجلّ ، ان يهلك بها قوماً بعد طغيانهم وتجبّرهم وعتوّهم ؛ ليعرفوا ، او ليُعرف بهم ، ان كثير امرهم لا يقوم بالقليل من امر الله عزّ وجل .

وفيها ، بعدُ ، معتبرٌ لمن اعتبر ، وموعظة لمن فكّر ، وصلاح لمن استبصر ، وبلوى ومحنة ، وعذاب ونقمة ، وحجّة صادقة وآية واضحة ، وسببٌ الى الصبر والفكرة ، وهما جماع الخير في باب المعرفة والإبانة ، وفي باب الاجر وعظم المثوبة .

وسنذكر جملةً من حال الذبّان . ثم نقول في جملة ما يحضرنا من شأن الغربان والجعلان .

ابتداء البحث

امثال مضروبة بالذبّان

ويقال في موضع الذمّ والهجاء : « ما هم الا فراش نار ، وذبان طمع ! » ويقال : « أطيش من فراشة ! وازهى من ذبّان ! » وقال الشاعر :

كأن بني ذويبة رهط سلمى فراشٌ حول نار يصطلينا

يطفنَ بحرّها ، ويقمنَ فيهـا ، ولا يدرينَ ماذا يتّقينا

والعرب تجعل الفراش ، والنمل ، والزنابير ، والدّبر كلها من الذبّان

اهمية الأنف

واما قولهم : ازهى من ذباب فلأن الذباب يسقط على انف الملك الجبّار ، وعلى موق (١ عينه ، ليأكله ؛ فيطرده ولا ينطرد . والانف هو النخوة وموضع التجبر . وكان من شأن البطارقة وقواد الملوك ، اذا انفوا ، أن ينخروا كما ينخر الثور عند الذبح ، والبرذون عند النشاط . والانف هو موضع الخُنزوانة (٢ والنعرة . والأصيد الملك الذي تراه ابداً ، من كبره ، مائلَ الوجه . وشُبّه بالاسد فقيل : « أصيد » لان عنق الاسد من عظمٍ واحد ؛ فهو لا يلتفت الا بكله . ويقال : « أرغم الله أنفه ، واذلّ معطسهُ ! » و « ستفعل ذلك وأنفُك راغم ! » والرغام التراب . و « لولا كذا وكذا لهشمت أنفك » فانما يخصّون بذلك الانف لان الكبر يضاف اليه .

حيل الاعراب في الاستعفاء من السخرة

ويقال : « بعير مذبوب » اذا عرض له ما يدعو الذبّان الى السقوط عليه . وهم يعرفون الغُرّة (٣ اذا فشت ، او اصابت بعيراً ، بسقوط الذبّان عليه . وبسقوط الذبّان على البعير ، يحتال الجمّال للسلطان ، اذا كان يسخّر إبله ، وهو لذلك كاره . واذا كان في جماله الجمل النفيس او الناقة الكريمة ؛

---

١) الموْق : طرف العين ممّا يلي الأنف .

٢) الخُنزوانة : الكبرياء

٣) العرّة : الجَرَب .

فانه يعمد الى الخَضخاض (١ فيصبّ فيه شيئاً من دبس، ثم يطلي به ذلك البعير . فاذا وجد الذبّان ريح الدبس تساقطنَ عليه . فيدعي ، عند ذلك ، أنّ به عُرَّة ؛ ويجعل الشاهد له ، عند السلطان، ما يوجد عليه من الذبّان . فما اكثر ما يتخلّصون بكرائم اموالهم بالحِيَل من ايـدي السلطان . ولا يظنّ ذلك السلطان ، الا انه متى شاء ان يبيع مائة اعرابي بدرهم فعل . والعُرَّة عندهم تعدي ، وطباعُ الإبل أقبل شيء للأدواء التي تعدي . فيقول الجمّال ، عند ذلك ، للسلطان : « لو لم اخف على بعيري هذا المعرّ ان يعدي ، لم أبالِ . ولكني اخاف إعداء العُرَّة ومضرّتها في سائر مالي . » فلا يزال يستعطفه بذلك ، ويحتال له ، ويميله ، حتى يخلي سبيله .

ويقال ان الذبّان لا يقرب قدرًا فيه كمأة ، كما لا يدخل سامّ أبرص بيتاً فيهِ زعفران . ومن اصابه عضّ الكلب الكلِب حموا وجهه من سقوط الذبّان عليهِ ؛ قالوا : وهو اشدّ عليهِ من دبيب النبر على البعير ، والنبر دويبّة اذا دبّت على البعير تورّم ، وربما كان ذلك سبب هلاكه .

قدح الذبّان

وليس في الارض ذباب إلّا وهو اقدح (٢ ، ولا في الارض بعير إلّا وهو أعلم (٣ ، كما انهُ ليس في الارض ثور إلّا وهو أفطس . وفي ان كل بعير أعلم يقول عنترة :

---

١) الخَضخاض : نفط اسود رقيق تُدهن به الابل الجرباء .

٢) الاقدح : سمّي الذباب القَدوح والاقدح لانهُ يُكثر من حكّ ذراعه بذراعه ، فكأنه يقدح بالعود او بالصوان ليخرج نارًا .

٣) الأعلم : هو الذي في شفته العليا شقّ .

وحليل غانيةٍ تركتُ مجدّلًا   تمكو فريصتُهُ كشِدْقِ الأعلمِ (١

كما انه قال « كشدق البعير » اذ كان كل بعيرٍ أعلم ، والشعراء يشبّهون الضربة بشدق البعير . واذا قيل : الأعلم عُلم انه البعير ، كما انهُ اذا قيل : الاقدح عُلم انهُ الذبّان . قال الشاعر :

ولأنت اطيشُ ، حين تغدو سادرًا   حذر الطعان ، من القدوحِ الأقدحِ (٢

يعني الذبّان لانهُ اقدح ، ولانه ابدًا يحكّ باحدى ذراعيه على الاخرى كأنه يقدح بعود من مَرْخ (٣ ، او عَفار (٤ ، او عُرْجُون (٥ ، او غير ذلك مما يُقدح به .

الذبّان في الشعر

ولا يُعلم في الارض شاعر تقدَّم في تشبيه مصيب تامّ ، وفي معنى غريب عجيب ، او في معنى شريف كريم ، او في بديع مخترع ، الا وكل من جاء من الشعراء من بعده او معه ان هو لم يقدر على لفظه فيسرق بعضه او يدّعيه بأسره ، فانه لا يدع ان يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيهِ ؛ كالمعنى الذي تتنازعهُ الشعراء فتختلف الفاظهم وأعاريض

---

١) مجدّلًا : مطروحا على الجدالة وهي الارض . تمكو : تصفر . شبّه سعة الطعنة بسعة شدق الأعلم ، وقال بعض المفسّرين : بل شبّه صوت انصباب الدم من الجرح بصوت خروج النفس من شدق الأعلم .

٢) السادر : المتحيّر . القدوح الأقدح : اي الذبّان .

٣) المَرْخ : شجر سريع الوَرْي يُقتدح به .

٤) العَفار : شجر سريع الوَرْي ايضاً يتخذ منه الزناد الاعلى ، ويُتخذ الزناد الاسفل من المَرْخ .   ٥) العُرجون : العِذق اذا يبس واعوجّ .

اشعارهم ، ولا يكون احد منهم احقّ بذلك المعنى من صاحبه ، او لعلّه يجحد انه سمع بذلك المعنى قط ، وقال انهُ خطر على بالي من غير سماع ، كما خطر على بال الاول هذا اذا قرّعوه به ؟ إلا ما كان من عنترة في صفة الذباب . فانه وصفه ، فأجاد وصفَه ، فتحامى معناه جميع الشعراء ، فلم يعرضوا لهُ . وقد عرض لهُ بعض المحدثين ممن كان يُحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، ومن اضطرابه فيه ، انه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر . قال عنترة :

حادت عليها كل عينٍ ثَرَّةٍ ، فتركنَ كل حديقةٍ كالدرهمِ (١
فترى الذبابَ بها يغني وحده ، هزجاً كفعل الشارب المترنّمِ (٢
غردًا يحكّ ذراعَه بذراعه : فعلَ المكبِّ على الزنادِ الأجذمِ (٣

قال : يريد فعل الاقطع المكبّ على الزناد . والاجذم المقطوع اليد . فوصف الذباب ، اذا كان واقعاً ثم حكّ احدى يديه بالاخرى ، فشبّههُ عند ذلك برجل مقطوع اليد يقدح بعودين . ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك . ولم اسمع ، في هذا المعنى ، بشعر ارضاه غير شعر عنترة .

---

١) العين : مطر ايام لا يُقلع . ثرّة : كثيرة الماء . حديقة : وفي رواية اخرى « قرارة » : وهو الصواب ومعناها : الحفرة . اي كثر المطر حتى ترك حفراً يستدير فيها الماء ويبيضّ فكأنها الدرهم استدارةً وصفاءً . والابيات من المعلّقة ويُروى فيها الاول على الصورة التالية :

جادت عليه كلُّ بكرٍ حُرَّةٍ فتركنَ كلَّ قرارةٍ كالدرهمِ

٢) وفي المعلّقة يروى البيت هكذا :

وخلا الذباب بها ، فليس ببارحٍ غردًا كفعل الشارب المترنّمِ

٣) غردًا : وفي رواية المعلّقة : هزجاً اي مصوّتاً . فعلَ المكبّ : وفي رواية المعلّقة : قَدْحَ المكبِّ .

انواع الذبّان

والذباب ضروب سوى ما ذكرناه من الفراش ، والنحل، والزنابير . فمنها الشَّعْراء (١

وللكلاب ذباب على حدة ، تُخلق منها ولا تريد سواها . ومن ذباب الكلأ والرياض وكلّ نوع منها يألف ما خُلق منه .

صوت الذبّان

والعرب تسمّي طنين الذبّان والبعوض غناء ، وقال الاخطل في صفة الثور :

فرد تغنّيه ذبّان الرياض ، كما غنّى الغواةُ بصيح عند أسوار

وقال حضرمي بن عامر في طنين الذباب :

ما زال اهداء القصائد بيننا شتم الصديق ، وكثرة الالقاب ،
حتى تركت كأن امرك بينهم في كلّ مجتمعٍ ، طنينُ ذباب !

ويقال : « ما قولي هذا عندك الا طنين ذباب ! »

عمر الذبّان — شدّة فتكها

وفي الحديث : ان عمر الذباب اربعون يوماً . ولها وقت هيج في اكل الناس وعضّهم ، وشرب دمائهم . والذبّان ، في وقت من الاوقات ، من حتوف الابل والدوابّ . والذباب والبعوض من ذوات الخراطيم ؛ ولذلك اشتدّ عضّها ، وقويت على خرق الجلود والغلاظ .

---

١) الشَّعْراء : ذباب ازرق او احمر يقع على الإبل والحمير .

وقــالوا : ذوات الخراطيم من كل شيء اقوى عضًا ونابًا وفكًا ، كالذئب والخنزير والكلب . واما الفيل ، فان خرطومه هو انفه ، كما ان لكل شيء من الحيوان أنفاً ، وهو يده . وفيه يجري الصوت كما يُجري الزامرُ الصوتَ في القصبة بالنفخ . ومتى تضاغط الهواء صوّت على قــدر الضغط ، او على قدر الثقب .

والذباب اسم الواحد ، والذبّان اسم الجماعة . واذا ارادوا التصغير والتقليل ، ضربوا بالذبّان المثل . كما قال الشاعر :

رأيت الخبز عزّ لديك ، حتى حسبت الخبز في جوّ السحابِ
وما روّحتنا لتذبَّ عنّا ، ولكن خفت مرزية الذبابِ

شرب الذبّان

قال : وليس شيء مما يطير يلغ في الدم . وانما يلغ في الدماء من السباع ذوات الاربع . واما الطير فانها تشرب حسواً او عبّة بعد عبّة ، ونغبة بعد نغبة . وسباع الطير قليلة الشرب للماء ، والأُسد كذلك .

قال : والطير لا تلغ ، وانما يلغ الذباب ؛ وجعله من الطير . وهو ، وان كان يطير ، فليس ذلك من اسمائه . واذ جاز ان يستعير له اسم الطائر ، جاز ان يستعير للطير ولغ السباع فيجعل حسوها ولغاً . وقال الشاعر :

سراعٌ الى ولغ الدماء رماحُهم وفي الحرب والهيجاء ، أُسدٌ ضراغمْ

خصال الذباب المحمودة

قال : وفي الذباب خصلتان من الخصال المحمودة :

اما احداهما فقرب الحيلة لصرف اذاها ، ودفع مكروهها . فمن اراد

اخراجها من البيت فليس بينه وبين أن يكون البيت على المقدار الاول من الضياء ، ولكن مع السلامة من التأذي بالذبان، الا ان يغلق الباب. فإنهنَّ يتبادرنَ الى الخروج ، ويتسابقنَ في طلب الضوء والهرب من الظلمة . فاذا أُرخي الستر ، وفتح الباب ، عاد الضوء ، وسلم اهله من مكروه الذباب . والحيلة في اخراجها والسلامة من اذاها يسيرة . وليس كذلك البعوض . لان البعوض انما يشتدّ اذاه ، ويقوى سلطانه ، ويشتدّ كَلَبُه في الظلمة ، كما يقوى سلطان الذباب في الضياء . وليس يمكن الناس ان يدخلوا منازلهم من الضياء ما يمنع عملَ البعوض ، لان ذلك لا يكون الا بإدخال الشمس . والبعوض لا يكون الا بالصيف ؛ وشمسُ الصيف لا صبرَ عليها . وليس في الارض ضياء انفصل من الشمس الا ومعه نصيبه من الحرّ . وقد يفارق الحرُّ الضياءَ في بعض المواضع ، والضياء لا يفارق الحرَّ في مكان من الاماكن . فإمكان الحيلة في الذباب يسير ، وفي البعوض عسير .

والفضيلة الاخرى : أنه لولا ان الذبابة تأكل البعوضة ، تطلبها ، وتلتمسها على وجوه حيطان البيوت ، وفي الزوايا ، لما كان لاهلها فيها قرار .

وذكر محمد بن الجهم ، فيما خبرني عنه به بعض الثقات ، انه قال لهم ، ذات يوم : « هل تعرفون الحكمة التي استفدناها من الذباب ؟ » قالوا : « لا ! » قال : « بلى ! انها تأكل البعوض ، وتصيدها ، وتلقطها ، وتفنيها . وذلك اني كنت اريد القائلة ، فأمرت باخراج الذباب ، وطرح الستر ، فإغلاق الباب ، قبل ذلك بساعة . فاذا خرجنَ حصل في البيت البعوض وقويَ سلطانه وقوّته . فكنت ادخل الى القائلة ، فيأكلني

البعوض اكلًا شديدًا . فاتيت ، ذات يوم ، المنزل في وقت القائلة ، فاذا ذلك الباب مفتوح ، والستر مرفوع . وقد كان الغلمان اغفلوا ذلك في يومهم . فلما اضطجعت للقائلة ، لم اجد من البعوض شيئاً . وقد كان الغضب يشتدّ على الغلمان . فنمت في عافية . فلما كان من الغد ، عادوا الى إغلاق الباب ، و إخراج الذباب . فدخلت التمس القائلة ، فاذا البعوض كثير . ثم اغفلوا إغلاق الباب يوماً آخر . فلما رأيته مفتوحاً ، شتمتُهم . فلما صرت الى القائلة ، لم اجد بعوضةً واحدة فقلت في نفسي : قد اراني نمت في يومَي التضييع ، وامتنع مني النوم في ايام التحفظ والاحتراس ، فلم لا اجرّب ترك إغلاق الباب في يومي هذا . فان تمّت ثلاثة ايام لا القى من البعوض اذًى مع فتح الباب ، علمت ان الصواب في الجمع بين الذبّان والبعوض . فانّ الذبّان يفنيه ، وان صلاح امرنا في تقريب ما كنا نباعد . ففعلت ذلك فاذا الامر قد تمّ . فصرنا ان اردنا إخراج الذبان أخرجناها بأيسر حيلة . واذا اردنا افناء البعوض ، افنيناها بأيسر حيلة . فهاتان خصلتان من مناقب الذبّان .

منافع الذبّان في الادوية

وكان محمد بن الجهم يقول : لا تتهاونوا بكثير مما تريدون من علاج القوابل والعجائز . فان كثيراً من ذلك انما وقع اليهم من قدماء الاطباء ؛ كالذبّان يُلقى في الإثمد ، ويُسحق معه فيزيد في نور البصر ، ويقوّي النظر ، ويشدّ مركز الأشفار في حافات الجفون .

وقلت له مرّة : قيل للسرجويه : ما بال سكان البساتين ، مع كثرة

الكرّاث والتمر ، وشربهم ماء السواقي المالح ، اقل الناس خُفشاناً (١ وعُشياناً وعوراً . قال : اني فكرت في ذلك ، فلم اجد له علّة الا طول وقوع ابصارهم على الخضرة .

قال ابن الجهم : ومن اهل السفالة ناس يأكلون الذّبان ، لا يرمدون . وليس لذلك اكلوا . وانما هم كأهل خُراسان الذين يأكلون فراخ الزنابير ، والزنابير ذبّان . واصحاب الجبن الرطب يأخذون الجبنة التي قــد نغلت دوداً ، فينكتها حتى يخرج ما فيها من الدود في راحته . ثم يقمحها كما يقمح السويق .

ذكر المكّي

وقال لي المكّي مرّة : انما عمر الذّبان اربعون يوماً . قلت : هكذا جاء في الاثر . وكنا يومئذٍ بواسط ، في ايام العسكر . وليس بعد ارض الهند اكثر ذباباً من واسط . ولربما رأيت الحائط ، وكأنّ عليه مسحاً شديد السواد من كثرة الذّبان الذي عليه . فقلت للمكّي : احسب الذّبان يموت في كل اربعين يوماً ، وان شئت في اكثر ، وان شئت في اقلّ ؛ ونحن ، كما ترى ، ندوسها بارجلنا ؛ ونحن ها هنا مقيمون منذ اربعين يوماً ، بل منذ أشهر ، وما رأينا ذباباً واحداً ميتاً ؛ فلو كان الامر على ذلك ، لرأينا الموتى كما رأينا الاحياء . قال : ان الذبابة ، اذا ارادت ان تموت ، ذهبت الى بعض الخرائب . قلت : فانا قد دخلنا كل خربة في الدنيا، وما رأينا فيها قط ذباباً ميتاً

---

١) الخُفشان : جـ. الأخفش ، وهو مَن ضعف بصره ، وصغرت عينه خلقةً او من فسادٍ في الجفون .

وكان المكي طبيباً طيّب الحجج ، ظريف الحِيَل ، عجيب العلل وكان يدّعي كلَّ شيء على غايــة الإحكام ، ولم يُحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق . واذ قد جرى ذكره ، فسأحدّثك ببعض احاديثه، واخبرك عن بعض علله ، لتلهى بها ساعة ، ثم نعود الى ذكر الذبّان :

ادّعى هذا المكي البصر بالبراذين . ونظر الى برذون واقف قد القى صاحبه في فيه اللجام . فرأى فاس اللجام (١ وأين بلغ منه ، فقال لي : « العجب كيف لا يذرعه القيء (٢ . وانا لو ادخلت اصبعي في حلقي ، لما بقي في جوفي شيء الا خرج . » قلت : « الان علمتُ انك تبصر . » ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه ، فأقبل عليّ ، فقال لي : « كيف لا يبرد اسنانه ! » قلت : « انما يكون عند البصراء مثلك » ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة ، سال لعابه على الارض . فقال لي : ان « البرذون افسد الخلق عقلاً ! ولولا ذلك ، لكان ذهنه قد صفي . » قلت له : قد كنت اشكّ في بصرك بالدوابّ . فاما بعد هذا فلست اشكّ فيه .

وقلت له مرّة ، ونحن في طريق بغداد : « ما بال الفرسخ في هــذه الطريق يكون فرسخين ؟ والفرسخ يكون (٣ اقل من مقدار نصف فرسخ . » ففكّر طويلاً ، ثم قال : كان كسرى يقطع الناس الفراسخ . فاذا صانعَ صاحب القطيعة ، زادوه ؛ واذا لم يصانع ، نقصوه . واحاديثــه واعاجيبه كثيرة

---

١) فأس اللجام : الحديدة القائمة في الحنك

٢) يذرعه القيء : يسبق الى فيه ويغلبه

٣) اي في غير هذه الطريق

العود الى الذبّان

ثم رجع بنا القول الى صلة كلامنا في الاخبار عن الذبّان:

فامّا سكان بلاد الهند فانهم لا يطبخون قدرًا ، ولا يعملون حلوًا ، ولا يكادون يأكلون الّا ليلا ، لما يتهافت من الذبّان في طعامهم . وهذا يدلّ على عفن التربة ، ولخن الهواء

اذى الذبّان

وقال محمد بن حرب : ينبغي ان يكون الذبّان سمًّا ناقعاً لان كل شيء يشتدّ اذاه باللمس من غيره ، فهو بالمداخلة والملابسة اجدر ان يؤذي . وهذه الافاعي ، والثعابين ، والجرار ، قد تمسّ جلودها اناساً ولا تضرّهم الا بان تلابس ابرة العقرب ، وناب الافعى الدم . وقد نجد الرجل يدخل في جوف انفه ذباب ، فيجول في اوله من غير ان يجاوز ارنبته ، فيخرجه الانسان من جوف انفه بالنفخ وشدّة النفس . ولم يكن له هناك لبث ، ولا كان منه عضّ ، وليس الّا بما مسّ بقوائمه واطراف جناحيه ؛ فيقع في ذلك المكان من انفه من الدغدغة ، والأُكال ، والحكّة ، ما لا يصنع الخردل ، وبصل النرجس ، ولبن التين . فليس يكون ذلك منه الا وفي طبعه من مضادّة طباع الانسان ما لا يبلغه مضادّة شيء ، وان افرط

قال : وليس الشأن في انه لم يخمش ، ولم يجرح ، ولم يغمز ، ولم يعضّ ، ولم يخدش ؛ وانما هو على قدر منافرة الطباع للطباع ، وعلى قدر

القرابة والمشاكلة : قد نجد الانسان يغتمّ بقضيض (١ الفتيلة ، وصوتها عند قرب انطفاء النار ولبعض البلل يكون قد خالط الفتيلة . ولا يكون الصوت بالشرّ ، ولكن الاغتمام به والتكرّه له يكون في مقدار ما يعتريه من اشدّ الاصوات . ومن ذلك المكروه الذي يدخل على الانسان من غطيط النائم . وليست تلك الكراهة لعلّة الشدّة والصلابة ، ولكن من قبل الصورة والمقدار ، اذا لم يكن من قبـل الجنس . وكذلك صوت احتكاك الآجرّ الجديد بعضه ببعض

أكَلَة الذبّان

وقال ابن حرب : والذبّان قوت خلق كثير من خلق الله ، عزّ وجلّ . وهو قوت الفراريج ، والخفافيش ، والعنكبوت ، والخلد ، وضروب كثيرة من الهمج ، همج الطير ، وحشرات السباع . . .

اما الضباع فانها تأكل الجيف ، وتدع في افواهها فضولاً ، وتفتح افواهها للذبّان . فاذا احتشت ، ضمّت عليها . فهذه انما تصيد الذبّان بنوع واحد ، وهو الاختطاف والاختلاس واعجالها عن الوثوب

فاما الصيد الذي ليس للكلب ، ولا لعتاق الارض ، ولا للفهد ، ولا شيء من ذوات الاربع مثله في الحـذق والختل والمداراة ، وفي صواب الوثبة ، وفي التسدّد وسرعة الخطف ، مثل الذي يُقال له الليث ، وهو الصنف المعروف من العناكب بصيد الذبّان . فانك تجده ، اذا عاين الذبان ساقطاً ، كيف يلتطئ بالارض ، وكيف يسكن جميع جوارحه للوثبة ،

---

١) القضيض : مصدر قضَّ الوتر او السير : سمع له صوت كأنه قُطِع

وكيف يؤخر ذلك الى وقت الغرّة ، وكيف يريها انهُ عنها لاهٍ . فانك ترى من ذلك شيئاً لم ترَ مثله قطّ من فهد ، وان كان الفهد موصوفاً منعوتاً . واعلم انهُ قد ينبغي ان لا يكون في الارض شيء أصيد منه . لانهُ لا يطير ، ولا يصيد الّا ما يطير ، ويصيد طائرًا شديد الحذر ، ثم يصيد صيّاداً ، لان الذباب يصيد البعوض . وخديعتك للخدّاع اعجب ، ومكرك بالماكر أغرب . فكذلك يكون صيد هذا الفنّ من العنكبوت

وزعم الجرداني أن الوزغ تختل الذبّان وتصيدها صيداً حسناً شبيهاً بصيد الليث

قال : والزنبور حريص على صيد الذبان

وزعم الجرداني وتابعه كيسان ان الفهد انما اخذ ذلك عن الليث . ومتى رآه الفهد يصيد الذبان حتى تعلّم منه ؟ فظننتُ انهما قلّدا في ذلك بعض من اذا مدح شيئاً أسرف فيه

ويزعمون ان السبع الصيود ، اذا كان مع سبع هو اصيد منه ، تعلّم منهُ واخذ عنهُ . وهذا لم أحقّه . فأما الذي لا اشكّ فيه فان الطائر الحسن الصوت الملحّن ، اذا كان مع نوائح ومغنّيات ، فكان يقرب الطائر من شكله وهو احذق منهُ وأمهر ، جاوبَه وحكاه وتعلّم منهُ ، او صنع شيئاً يقوم مقام التعلّم . والبرذون يُراض فيعرف ما يُراد منهُ ، فيُعين على نفسه . وربما استأجروا للطير رجلا يعلّمها فأما الذي رأيته انا في البلابل، فقد رأيت رجلًا يُدعى لها ، فيطارحها من شكل اصواتها . وفي الطير ما يخترع الاصوات واللحون التي لم يُسمع بمثلها قط من المؤلّف للحون من الناس . فانه ربما انشأ لحناً لم يمرّ على سماع المغنّين قط . واكثر ما يجدون

ذلك من الطـير في القمارى ، وفي السودانيات ؛ ثم في الكرارة ، وهي تأكل الذبّان اكلًا ذريعاً

إلحاح الذبّان وغيره من الحشرات

ويُقال ان اللجّاح في ثلاثة اجناس من بين جميع الحيوان : الخنفساء ، والذباب ، والدودة الحمراء . فانها في إبان ذلك تروم الصعود الى السقف ، وتمرّ على الحائط الاملس شيئاً قليلًا ، فتسقط وتعود . ثم لا تزال تزداد شيئاً ، ثم تسقط ، الى ان تمضي الى باطن السقف . فربما سقطت ولم يبقَ عليها الا مقدار اصبع ، ثم تعود

اعتقاد البعض بالخنافس والذبان

والخنفساء تُقبل قبل الانسان ، فيدفعها . فتبعد بقدر تلك الطردة والدفعة ، ثم تعود ايضاً . فيصنع بها اشدّ من تلك ، ثم تعود . حتى ربما كان ذلك سبباً لغضبه ، ويكون غضبه سبباً لقتلها . وما زالوا كذلك ، وما زالت كذلك ، حتى سقط الى المقاييس ان الخنافس تجلب الرزق ، وان دنوّها دليـل على رزق حاضر من صلة ، او جائزة ، او ربح ، او هدية ، او حظّ . فصارت الخنافس ، ان دخلت في قمصهم ثم نفذت الى سراويلاتهم ، لم يقولوا لها قليلًا ولا كثيراً . واكثر ما عندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق . ويظن بعضهم انه اذا دافعها فعادت ، ثم دافعها فعادت ، ثم دافعها فعادت ؛ ان ذلك كلما كان اكثر ، كان حظه من المال الذي يؤمّله عند مجيئها اكثر . فانظر أية واقية دائمة حافظة ، واي حارس ، واي حصن ، ان شاء الله تعالى ، لها بهذا القول ، واي حظّ لها

حين صدَّقوا هذا التصديق. والطمع هو الذي اثار هذا الامر من مدافنه. والفقر هو الذي سبَّب هذا الطمع ، واجتلبه . ولكن الويل لها ان الحَّت على غنيّ عالم ، وخاصةً ان كان مع حدوثه وعلمه ، حديدًا عجولًا

وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد البطش ، المُلحّ في ذلك ، الجهير الصوت، الذي تسمّيه العوامّ امير الذبان. فكانوا يحتالون في صرفه وطرده ، اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهاهمه. فلما سقط اليهم انه مبشّر بقدوم غائب ، وبرء سقيم ، صاروا ، اذا دخل المنزل واوسعهم شرًّا ، لم يُهجْه احدٌ منهم . واذا اراد الله ان يُنسىء في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً. كما انهُ اذا اراد ان يقصِر عمره هيأ له سبباً . فتعالى الله علوًّا كبيرًا

حكاية القاضي

ثم رجع بنا القول الى إلحاح الذبّان

كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال لهُ عبد الله بن سوار ؛ لم يرَ الناس حاكماً قط زميتاً(١) ، ولا ركيناً ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلّي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ . فلا يزال منتصباً لا يتحرَّك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحلّ حبوته ، ولا يحلّ رجلًا على رجل ، ولا يعتمد على احد شقّيه ، حتى كأنهُ بناء بني او صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر . ثم يعود الى مجلسه، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك

١) الزميت: الوقور ، الرزين

حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم ربما عاد الى محله ؛ بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، اذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق . ثم يصلّي العشاء ، وينصرف . فالحق يُقال لم يقم ، في طول تلك المدّة والولاية ، مرّة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه في طوال الايام وقصاراها ، وفي صيفها وفي شتائها . وكان مع ذلك لا يحرّك يده ولا يشير برأسه ، وليس الّا ان يتكلم

فبينما هو كذلك ذات يوم واصحابه حواليه وفي السماطين بين يديه ، اذ سقط على انفه ذباب . فأطال المكث ، ثم تحوّل الى موق عينه . فرام الصبر في سقوطه على الموق وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على انفه ، من غير ان يحرّك ارنبته ، او يغضّ وجهه او يذبّ باصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، واوجعه ، واحرقه ، وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، اطبق جفنه الاعلى على جفنه الاسفل ؛ فلم ينهض . فدعاه ذلك الى ان يوالي بين الإطباق والفتح ، فتنحّى ريثما سكن جفنه . ثم عاد الى موقه باشد من مرته الاولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد اوهاه قبل ذلك . فكان احتماله وعجزه عن الصبر عليه في الثانية اقل ، فحرّك اجفانه ، وزاد في شدّة الحركة والحّ في فتح العين وفي تتابع الفتح والاطباق . فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدّاً من ان يذبّ عن عينيه بيده . ففعل ، وعيون القوم اليه ، ترمقه ، وكأنهم لا يريدونهُ . فتنحّى عنهُ بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته . ثم الجأه الى ن

ذبَّ عن وجهه بطرف كمّه، ثم الجأه الى ان تابع بين ذلك، وعلم ان فعله كلَّه بعين من حضره من امنائه وجلسائه. فلما نظروا اليه قال:

« اشهد ان الذباب الحّ من الخنفساء، وازهي من الغراب. واستغفر الله! فما اكثر من اعجبته نفسه فاراد الله عزَّ وجلَّ، ان يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً! وقد علمت اني عند نفسي من اضعف الناس، فقد غلبني وفضحني اضعف خلقه. » ثم تلا قوله فقال: «وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب!»[1]

وكان بيّن اللسان قليل الكلام؛ وكان مهيباً في اصحابه، وكان احد من لم يطعن عليه في نفسه ولا في تعريض اصحابه للمنالة.

الحاح الذبّان على الجاحظ

فاما الذي اصابني انا من الذبّان فاني خرجت امشي من عند ابن المبارك اريد دير الربيع، ولم اقدر على دابة. فمررت في عشب ونبات ملتفّ كثير الذبّان، فسقط ذباب من ذلك الذبّان على انفي. فطردته فلم اقدر، فتحول الى عيني، فزدت في تحريك يدي. فتنحّى عني بقدر شدّة حركتي وذبّي عن عيني. ولذبان الكلاء والغياض والرياض وقع ليس لغيرها. ثم عاد اليّ، فعدت عليه. ثم عاد، فعدت باشدّ من ذلك. فلما عاد استعملت كمّي، فذببت بهِ عن وجهي. ثم عاد وانا في ذلك احثّ السير اؤمل بسرعتي انقطاعه عني. فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي، فذببت بهِ عني بدل كمّي. فلما عاود، ولم اجد له حيلة، استعملت العَدْوَ، فعدوت منه

---

1) القرآن (٢٢ [الحج] ٧٢)

شوطاً لم اتكلف مثله مذ كنت صبياً . فتلقاني الاندلسي فقال لي: «ما لك يا ابا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » قلت : « نعم ! اريد ان اخرج من موضع للذبّان عليّ فيه سلطان. » فضحك حتى جلس . وانقطع (١ عني ، وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جداً

الذبّان والعساكر

والعساكر ابداً كثيرة الذبّان . فاذا ارتحلوا لم يرَ المقيم منها بعد الظاعن الّا اليسير . وزعم بعض الناس انهنَّ يتبعنَ العساكر، ويسقطنَ على المتاع، وعلى جلال الدوابّ، فاعجاز البراذين التي عليها، حتى تؤدي الى المنزل الآخر

قال المكي : يتبعوننا ليؤذونا ، ثم لا يركبون الا اعناقنا ودوابّنا

كيف يتولَّد الذبّان

ويقول بعضهم : بل انما يتخلَّق من تلك العفونات ، والابخرة ، والانفاس . فاذا ذهب ذلك خفَّ

وربما سددنا فم الآنية التي فيها الشراب بالصمامة . فاذا نزعناها وجدنا ذباباً صغاراً . واخبرني رجل من ثقيف من اصحاب النبيذ انهم فلقوا السفرجلة ، ايام السفوجل ، للنقل والأكل ، وليس هناك من صغار الذبّان شيء البتة . ولا يعدمهم ان يروا على مقاطع السفرجل ذباباً صغاراً . وربما رصدوها وتأملوها فيجدونها تعظم حتى تلحق بالكبار في الساعة الواحدة

---

١) انقطع : الضمير للذبّان

تماوت الذبّان

قال وفي الذبّان طبع كطبع الجعلان ، فهو طبع غريب عجيب ولولا ان العيان قهر اهله لكانوا خلقاء ان يدفعوا الخبر عنه . فان الجعل اذا دُفن في الورد مات في العين ، وفنيت حركاته كلها ، وعاد جامداً تارزاً[١] . ولم يفصل الناظر اليه بينه وبين الجعل الميت ما اقام على تأمله . فاذا أُعيد الى الروث ، عادت اليه حركة الحياة من ساعته

وجرّبت انا ذلك في الخنفساء ، فوجدت الامر فيها قريباً من صفة الجعل . ولم يبلغ كلّ ذلك لقرابة بين الخنفساء والجعل

ودخلت يوماً على ابن ابي كريمة ، واذا هو قد اخرج من اجّانة كان فيها ماء من غسالة أوساخ الثياب . واذا ذبّان كثيرة قد تساقطنَ فيه من الليل ، فمتنَ . هكذا كان في رأي العين . فغبرْنَ كذلك عشيتهنّ ، وليلتهنّ ، والغد الى انتصاف النهار ، حتى انتفخنَ وعفنّ واسترخينَ . واذا ابن ابي كريمة قد اعدّ آجرّة جديدة ، وفتات آجرّ جديد . واذا هو يأخذ الخمس منهنّ والستّ ، ثم يضعهنّ على ظهر الآجرّة الجديدة ويذرّ عليهنّ من دقاق ذلك الآجرّ الجديد المدقوق بقدر ما يغمرها . فلا تلبث ان يراها قد تحرّكت ، ثم مشت ، ثم طارت . الا انه طيران ضعيف

وكان ابن ابي كريمة يقول : « والله ! لا دفنت ميتاً ابداً حتى ينتن » . قلت : « وكيف ؟ » قال : « ان غلامي هذا نصيراً مات . فأخرت دفنه لبعض الامر . فقدم اخوه تلك الليلة ، فقال : « ما اظنّ اخي مات . » ثم

---

١) التارز : اليابس الذي لا روح فيه ، الميت

اخذ فتيلتين ضخمتين ، فروّاهما دهناً ، ثم اشعل فيهما النار . ثم اطفأهما وقرّبهما الى منخريه . فلم يلبث ان تحرّك . وها هوذا قد تراه . »

قال له : « ان اصحاب الحروب الذين يغسلون الموتى ، والاطباء ، عندهم في هذا دلالات وعلامات . فلا تحمل نفسك في واحد من اولئك ، ان لا تستره بالدفن حتى يجيف . والمجوس يقرّبون الميت من أنف الكلب ، ويستدلّون بذلك على أمره . » فعلمت ان الـذي عاينّاه من الذبّان قد زاد في عزمه

ضروب من الذبّان

والنَعر ضربٌ من الذبّان . والواحدة نَعرة . وربما دخلت في انف البعير او السبع ، فتورّم انفه للذي يلقى من المكروه بسببه . فالعرب تشبّه ذا الكبر من الرجال ، اذا صعّر خده ، وزمّ بأنفه ، بذلك البعير في تلك الحال . فيُقال عند ذلك : « فلان في انفه نَعرة ، وفي انفه خنزوانة ! »
وقال عمر : « والله لا اقلع عنه او أطير نَعرته ! »

ومنها القَمَع ، وهو ضربٌ من ذبّان الكلأ . وقال أوس :

ألم ترَ أن الله انزل مزنَه وعفر الظباء في الكناس تقمّعُ (١

وذلك مما يكون في الصيف وفي الحرّ

اذى الذبّان

والذبان جند من جند الله شديد الأذى . وربما كان اضرّ من الدبر ،

---

١) الكناس : بيت الظبي . تقمّع : تطرد عنها الذباب المذكور

في بعض الزمان. وربما اتت على القافلة بما فيها . وذلك انها تغشى الدوابّ حتى تضرب بأنفسها الارض، وهي في المفـاوز ، وتسقط . فيهلك أهل القافلة لانهم لا يخرجون من تلك المفاوز على دوابّهم . وكذلك تُضرب الرعاء بابلهم ، والجمالون بجمالهم عن تلك الناحية ؛ ولا يسلكها صاحب دابّة ؛ ويقول بعضهم لبعض : « بادروا قبل حركة الذباب ، وقبل ان تتحرّك ذباب الرياض والكلأ » والزنابير لا تكاد ترمي اذا لسعت باذنابها . والذبّان تغمس خراطيمها في جوف لحوم الدوابّ ، وتخرق الجلود الغلاظ حتى تنزف الدم نزفاً . ولها مع شدّة الوقع سموم . وكذلك البعوضة ذات سُمّ . ولو زيد في بدن البعوضة ، وزيد في حرقة لسعها الى ان يصير بدنها كبدن الجرادة ، فانها اصغر من العقارب ، لما قام لهُ شيء ، ولكان اعظم بليّة من الجرادة النصيبيّة اضعافاً كثيرة

وربما رأيت الحمار وكأنه منعر او معصفر . فانهم ، مع ذلك ، ليجلّلون حميرهم ، ويبرقعونها وما يـدعون موضعاً الّا ستروه بجهدهم . فربما رأيت الحمير وعليها الرجال بأيديهم المناخس والمذابّ ، وقد ضربت بأنفسها الارض واستسلمت للموت . وربما رأيت صاحب الحمير ، اذا كان اجيراً يضربها بالعصا بكل جهده فلا تنبعث ؛ وليس لجلد البقرة والحمار والبعير عنده خطر . ولقد رأيت ذباباً سقط على سالفـة حمار كان تحتي . فضرب بأُذنيه وحكّ رأسه بكل جهة ، وانا اتأمّله ، وما يُقلع عنه . فعمدت بالسوط لانحّيه به . فنزا عنهُ ، ورأيت مع نزوه عنهُ ، الدم وقـد انفجر . كأنهُ كان يشرب الدم ، وقد سدّ المخرج بفيه ، فلمّا نحّاه طلع

عود الى تولّد الذبّان

والذباب من الخلق الذي يكون مرّة من الولادة ، ومرّة من تعفّن الاجسام والفساد الحادث في الأجرام (١. والباقلاء(٢ ، اذا عتق شيئاً في الاقباء ، استحال كلهُ ذباباً . فربّما اغفلوه في تلك الاقباء ، فيعودون الى الأقباء وقد تطاير من الكوى والخروق ، فلا يجدون في الأقباء الا القشور والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ، ثم يعود ذباباً . وما اكثر ما ترى الباقلاء مثقباً ، في داخله شيء كأنه مسحوق ، اذ كان الله قد خلق فيهِ الذبّان وطيّره منه . وما اكثر ما تجده فيه تام الخلق ، ولو تمّ جناحاه ، لقد كان طار

حكاية الشيخ والباقلاء

وحدثني بعض اصحابنا عن شيخ من اهل الجزيرة ، قال :

كنت احب الباقلاء ، واردت إمّا البصرة وإمّا بغداد ، ذهب عني حفظه . فصرت في سفينة حملها باقلاء . فقلت في نفسي : هذا ، والله ، من الحظّ وسعادة الجدّ ، ومن التوفيق والتسديد ، ولقد ربح من وقع له مثل هذا الذي وقع لي أجلسُ في هذه السفينة ، على هذا الباقلاء ، فآكل منهُ نيئاً ، ومطبوخاً ، ومقلوّاً ، وارضّ بعضه ، واطحنه ، واجعله مرقاً وإداماً . وهو يغذي غذاء صالحاً ، ويسمّن . فابتدأت فيما املته . ودفعتُ

---

١) لا لزوم للاشارة الى فساد هذه الآراء في تولّد الذبان وما شاكلها ، اذ اصبح معروفاً عند الجميع ان لا حياة الا من الحياة

٢) الباقلاء : الفول

السفينة ، فانكرت كثرة الذبّان . فلما كان الغد جاء منهُ ما لم اقدر معهُ على الاكل والشرب . وذهبت القائلة ، وذهب الحديث ، وشُغلت بالذَبّ . على انهنَّ لم يكنَّ يرجعنَ بالذَبّ . ولن اكثر من ان اكون لا اقوى عليهنّ لاني كنت لا اطرد مائة حتى يخلفها مائــة مكانها . وهنَّ في اوَّل ما يخرجنَ من الباقلاء كأنّ بهنّ زمانــة ؛ فلما كان طيرانهنَّ اسوأ لحالي ؛ فقلت للملّاح : « ويلك ! اي شيء معك حتى صار الذبان يتبعك ؟ قد والله اكلت وشربت ! » قال : « وليس تعرف القصة ؟ » قلت : « لا والله ! » قال : « من هذه الباقلاء . ولولا هذه البلية لجاءنا من الركاب كما يجيئون الى اصحابنا . وما اظنك الا ممن قــد اغترَّ بلين الكراء وحبّ التنزّد بالسفينة . فسألته ان يقرّبني الى بعض الفُرَض حتى اكتري من هناك الى حيث اريد . » فقال لي : « أتحبّ ان ازوّدك منهُ ؟ » قلت : « ما احبّ ان التقي انا والباقلاء في طريق ابدًا . »

وبعد ان يذكر مضارّ الباقلاء والبصل ، يعود الى الموضوع الاوَّل فيقول :

ثم رجع بنا القول في ذكر خلق الذبّان من الباقلاء :

وقد انكر ناس من العوامّ ، واشباه العوامّ ، ان يكون شيء من الخلق من غير ذكر وانثى . وهذا جهل بشأن العالم وبأقسام الحيوان . وهم يظنّون ان على الدين من الاقرار بهذا القول مضرّةً . وليس القول كما قالوا . وكل قول يكذبــهُ العيان ، فهو افحش خطأً ، واسخف مذهباً ، وادلّ على معاندة شديدة او غفلة مفرطة . وقد علمنا ان الانسان يأكل الطعام ويشرب الشراب ، وليس فيهما حية ولا دودة ، فيخلق منهما في جوفهِ الوان من الحيات ، واشكال من الديدان من غير ذكر ولا انثى . . .

وبعد فنحن ننزع الصمامة من رؤوس الآنية التي يكون فيها بعض الشراب، فنجد هناك من الفراش ما لم يكن عن ذكر ولا انثى . وانما ذلك لاستحالة بعض اجزاء الهواء وذلك الشراب، اذا انضمّ عليه ذلك الوعاء

امثال مضروبة في الذّبان

قيل لعلوية، كلب المطبخ : اي شيء معنى قولهم : « هذا نبيذ يمنع جانبه ؟ » قال : « يريد ان الذبان لا يدنو منهُ . » وكان الرقاشي حاضراً، فأنشد قول ابن عبدل :

عشّش العنكبوت في قعر دنّي : ان ذا من رزيّتي لَعظيمُ !
ليتني قد عمرت دنّيَ، حتى ابصر العنكبوت فيه يعومُ،
غرقاً لا يغيثه الدهرَ الّا زبدٌ، فوق رأسه، مركومُ
مخرج كفّه ينادي ذباباً، ان : « أغثني، فانني مغمومُ ! »
قال : « دعني ! فلن اطيق دنوّاً من شرابٍ يشمّه المزكومُ ! »

والذبان يُضرب بهِ المثل في القذر، وفي استطابة النتن . فاذا عجز الذباب عن شمّ شيء فهو الذي لا يكون انتن منهُ . ولذلك حين رمى ابن عبدل محمد بن حسان بن سعيد بالبَخَر (١ قال :

وما يدنو الى فيهِ ذبابٌ، ولو طُليت مشافره بقَنْدِ (٢
يرين حلاوةً، ويخفنَ موتاً وشيكاً، ان هممنَ لهُ بوردِ !

---

١) البَخَر : نتن ريح الفم .

٢) المشافر : ج. مِشفر : الشفة ويُستعمل خصوصاً للبعير . القَنْد : عسل قصب السكر

ويقال لكل أبخر : « ابو ذبّان . » وكانت ، فيما زعموا ، كنية عبد الملك بن مروان

قالوا : وضرب الله ، عزّ وجلّ ، لضعف الناس وعجزهم مثلاً فقال : « يا ايها الناس ؛ ضرب مثل فاستمعوا لهُ : ان الذي تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا لهُ ؛ وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ : ضعف الطالب والمطلوب ! » (١ فقال بعض الناس : قد سوّى بين الذبان والناس في العجز

ويقال ارض مذبّة اي كثيرة الذباب . وقال ابو الشمقمق في هجائهِ لبعض من ابتلي بهِ :

اسمج الناس جميعاً كلهم كذبابٍ ساقط في مَرَقة !

صوت الذباب — الوان بعضها

ومما قيل في اصوات الذباب قول المثقّب العبدي :

وتسمع للذباب ، اذا تغنى ، كتغريد الحمام على الغصونِ

وقال الشماخ :

يكلّفها ان لا تخفّض صوتها اهازيج ذبّان ، على عود عوسج

والاجناس التي توصف بالغناء اجناس الحمام ، والبعوض ، واصناف الذبّان من الدبر ، والنحل ، والشعراء ، والقمع ، والنعراء . وليس لذبّان الكلب غناء ، ولا لما يخرج من الباقلاء

وذبان الشعراء حمر . والذبان التي تهلك الإبل زرق . والذباب الذي

---

١) القرآن : سورة (٢٢ [الحجّ] ٧١-٧٢)

يسقط على الدوابّ أصفر . وقال ارطاة بن سهيّة :

اني امرؤ تجد الرجالُ عداوتي   وجد الركاب من الذباب الازرقِ !

واذا مرَّ بك الشعر الذي يصلح للمثل وللحفظ ، فلا تنسَ حظّك من حفظه

والدليل على ان اجناس النحل والدبر كلها ذبّان ما حدّث عباد بن صهيب ، واسماعيل المكي ، عن الأعمش ، عن عطية بن سعيد الصوفي ، قال : قال رسول الله (صلعم) : « كل ذباب في النار الا النحلة . »

وحدّثنا عنبسة ، قال : حدثنا حنظلة السدوسي ، قال : أنبأنا انس ابن مالك ان رسول الله (صلعم) قال : « عمر الذباب اربعون يوماً (١ والذباب في النار . »

مناظرة كلامية

واختلف الناس في تأويل قوله : « والذباب في النار »

وقال قوم : « الذباب خَلقٌ خُلِقَ للنار ؛ كما خلق الله تعالى ناساً كثيراً للنار ، وخلق اطفالًا للنار . »

فهؤلاء قوم خلعوا عذرهم فصار احدهم اذا قال : ذلك عدل من الله عزَّ وجلّ . فقد بلغ اقصى العذر ؛ ورأى انهُ ، اذا اضاف اليه عذاب الاطفال ، فقد مجّده . ولو وجد سبيلًا الى ان يقول : ان ذلك ظلم ، لقاله . ولو وجد سبيلًا الى ان يزعم ان الله تعالى يخبر عن الشيء أنه يكون ، وهو لا يكون ؛ ثم يقول : الا ان ذلك صدق ، لقاله إلا انهُ يخاف

---

١) راجع ص : ٢٠ و٢٤

السيف عند هذه، ولا يخاف السيف عند تلك . وان كانت تلك اعظم في الفريّة من هذه

وبعضهم يزعم ان الله ، عزّ وجلّ ، انما عذّب اطفال المشركين ، ليغمّ بهم آباءهم . ثم قال المتعاقلون منهم : بل عذّبهم لانه هكذا شاء ؛ ولأن هذا له

فليت شعري ! يُحتسب بهذا القول في باب التمجيد لله تعالى !

وزعم ابو اسحق ن الطاعات اذا استوت، استوى اهلها في الثواب . وان المعاصي اذا استوت ، استوى اهلها في العقاب . واذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضيل . وزعم ان اجناس الحيوان ، يحسّ ويألم ، في التفضيل سواء . وزعم ان اطفال المشركين والمسلمين كلهم في الجنة . وزعم انهُ ليس بين الاطفال ولا بين البهائم والمجانين فرق، ولا بين السباع في ذلك وبين البهائم فرق (١ . وكان يقول : ان هذه السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ؛ ولكن الله ، عزّ وجلّ ، ينقل تلك الارواح خالصة من تلك الآفات ، فيركّبها في اي الصور احبّ .

وكان ابو كلدة ، ومعمر ، وابو الهذيل ، وصحصح ، يكرهون هذا الجواب ويقولون : سواء عند خواصّنا وعوامّنا أقلنا ان ارواح كلابنا تدخل الجنة او قلنا ان كلابنا تدخل الجنة . ومتى ما اتصل كلامنا بذكر الكلب على ايّ وجهٍ كان، فكأنّا ، عندَهم ، قد زعمنا أنّ الجنة فيها كلاب . ولكنا نزعم ان جميع ما خلق الله تعالى من السباع ، والبهائم ،

---

١) هكذا تكرار « بين » والمشهور انها لا تُكرَّر الّا اذا لحق الاولى ضمير

والحشرات ، والهمج ، قبيح المنظر مؤلم او حسن المنظر ملذ (١ ، فما كان كالخيل ، والظباء ، والطواويس ، والتداريج ، فان تلك الجنة ، وتلك اولياء الله ، عزّ وجلّ ، بمناظرها ؛ وما كان منها قبيحاً في الدنيا مؤلم النظر ، جعله الله عذاباً الى عذاب اعدائه في النار . اذ جاء في الاثر ان الذباب في النار ، وغير ذلك من الخلق فانما يراد به هذا المعنى

وذهب بعضهم الى انها تكون في النار وتلذ بذلك . كما ان خزنة جهنم ، والذين يتولون من الملائكة التعذيب يلذون موضعهم في النار

وذهب بعضهم الى ان الله تعالى يطبعهم على استلذاذ النار والعيش فيها ، كما طبع حيوان الثلج والخل على العيش في اماكنها

وذهب آخرون الى ان الله ، عزّ وجلّ ، يحدث لابدانهم علّة لا تصل النار اليها . وتنعم قلوبهم وابدانهم من وجه آخر كما شاء

وذهب بعضهم الى ان سبيلهم فيها كسبيل نار ابراهيم . فانهُ لما قُذف فيها بعث الله ، عزّ وجلّ ، ملكاً يُقال لهُ « الظلّ » فكان يحدثه ويؤنسه . فلم تصل النار الى اذاه مع قربه من طباع ذلك الملك

وكيف دار الامر في هذه الجوابات ، فان اخسّها واشنعها احسن من قول من زعم ان الله تعالى يعذّب بنار جهنم من لم يسخطه ، ولا يعقل كيف يكون السخط . ومن العجب ان بعضهم يزعم ان الله تعالى انما عذّبه ليغم آباءه . وانما يفعل ذلك من لا يقدر على ان يوصل اليهم ضعف الاغتمام وضعف الالم الذي ينالهم بسبب ابنائهم . فاما من يقدر على ايصال

---

١) كذا صيغة الفاعل من الرباعي والمشهور ان فعل لذّ ثلاثي ، ولا يشتق منه وزن افعل .

ذلك المقدار الى من يستحقه، فكيف يوصله ويصرفه الى من لا يستحقه، وكيف يصرفه الى من لا يسخطه دون من اسخطه ؟

نوم الذبّان

نوم بعض الحيوانات

واعجوبة اخرى ، وهي عندي اعجب من كل شيء صدَّرنا به جملة القول في الذبّان :

ومن العجب ان يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوّط. فانهما اذا كان الليل فان احدهما يتدلّى من غصن الشجرة ، ويضمّ عليه رجليهِ ، وينكس رأسه . ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور . والآخر لا يزال يتنقّل في زوايا بيته ، ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه . فلا يزال كذلك ، وقد نتف قبل ذلك، ما على ظهور الاشجار، مما يشتبه بالليف؛ فنفشه ثم فتل منه حبلًا ؛ ثم عمل منه كهيئة القفة ؛ ثم جعله مدلىً بذلك الحبل ، وعقده بطرف غصن من تلك الاغصان . الا ان ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة . ثم يتخذ عشّه فيهِ ، ويأوي اليهِ مخافةً على نفسه .

وجاؤوا كلهم يخبرون ان الغرانيق والكراكي لا تنام ابدًا ، الا في ابعد المواضع من الناس ، واحرزها من صغار سباع الارض كالثعلب وابن آوى . وانما لا تنام حتى تقلّد امرها رئيساً، وقائدًا ، وحافظاً، وحارساً . وان الرئيس اذا اعيا رفع احدى رجليه ليكون ايقظ له . وسلطان النوم معروف . فاي رجل ممن يغرق في البحر ليعتصم بالشراع ، وبالعود ، وبغير ذلك ، وهو يعلم ان النوم متى خالط عينيه ، استرخت يده ، ومتى استرخت يده باينه الشيء الذي كان يركبه واستعصم بهِ ؛ وانهُ متى يأته لم يقدر عليهِ ،

ومن عجز عن اللحاق فقد عطب ؛ ثم هو ، في ذلك ، لا يخلو ، اذا سهر ليلة او ليلتين من ان يغلبه النوم ويقهره

التخلص الى نوم الذبّان

وليس في جميع ما رأينا وروينـا في ضروب نوم الحيوان اعجب من نوم الذبّان وذلك انها ربما جعلت مأواها دورة الباب ، وقد غشوه ببطانة ساج(١ املس كأنه صفاة. فاذا كان الليل لزمت به وجعلت قوائمها مما يليه، وعلّقت ابدانها الى الهواء. فان كانت لا تنام البتة ، ولا يخالطها عزوب المعرفة ، فهذا اعجب ان تكون امة من امم الحيوان لا تعرف النوم ولا تحتاج اليه. وان كانت تنام ، ويعزب عنها ما يعزب عن جميع الحيوان ، سوى ما ذكرنا ، فما تخلو من ان تكون قابضـة على مواضع قائمها ، ممسكة بها ؛ او تكون مرسلةً لها. فان كانت مرسلةً لها ، فكيف لم تسقط ، وهي اثقل من الهواء ؟ وان كانت ممسكةً بها ، فكيف يجامع التشدّد والتثبيت النوم ؟ ونحن نرى كل من كان في يـده كيس دراهم ، او حبل ، او عصا ، فانهُ متى خالط عينه النوم، استرخت يده ، وتفتحت اناملهُ. ولذلك يتثاءب المحتال للعبد الذي في يـده عنان دابّة مولاه ، ويتناوم له ، وهو جالس. لان من عادة الانسان، اذا لم يكن بحضرته من يشغله ، ورأى انساناً يتثاءب ، يتثاءب وينعس ، فمتى استرخت يده او قبضته عن طرف العنان ، وقد خامره سكر النوم ، ومتى صار الى هذه الحال ، ركب المحتال الدابّة ، ومرَّ بها



---

١) ساج : نوع من الخشب يُقطع من شجر طويل ينبت اصلياً في بلاد الهند

فهرس

4312